coptic-books.blogspot.com

مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية
دراسات آبائية - ٢٨-

الوجود شركة

BEING AS COMMUNION

Metropolitan John Ziziolas

المطران يوحنا زيزيولاس

أستاذ علم الآباء بجامعة تسالونيكي وجامعة جلاسجو

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية
دراسات آبائية
- ٢٨ -

الوجود شركة

دراسة في الشخص والكنيسة

للمطران
يوحنا زيزيولاس

أستاذ علم الآباء
بجامعة تسالونيكي وجامعة جلاسجو

سنة ٢٠٠٦

coptic-books.blogspot.com

إسم الكتاب : الوجود شركة

المؤلـــــف : المطران يوحنا زيزيولاس

المعـــــرب : مؤسسة القديس أنطونيوس

المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

الناشـــــر : مؤسسة القديس أنطونيوس

المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

الطبعة الأولى: سنة ١٩٨٩

الطبعة الثانية: منقحة سنة ٢٠٠٦

رقم الإيـداع : ١١٣٢٦ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977 – 5057 – 79 - 5

coptic-books.blogspot.com

قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

coptic-books.blogspot.com

المحتويات

مقدمة الطبعة الأولى: ٧

مقدمة الطبعة الثانية: ١٠

الفصل الأول: الكنيسة صورة الله ١١

الإيمان بالله في المسيحية والوثنية ١٤

لاهوت الآباء والفلسفة اليونانية القديمة ١٤

الأساس الكنسي لفلسفة آباء الكنيسة ١٦

الأفخارستيا والوجود الكنسي ١٧

الوجود شركة ١٧

أبوة الله هي علة وسبب الوجود ٢٠

الآب هو علة وسبب وجود الابن والروح القدس ٢١

المعمودية والهوية المسيحية ٢٣

من الآب بالابن في الروح القدس ٢٥

مميزات اللاهوت الشرقي ٢٦

دور الافخارستيا ٢٩

الفصل الثاني: الأهمية الروحية لكلمة أقنوم ٣٦

المرحلة الأولى من القناع إلى الشخص – الخلفية الفلسفية ٣٧

coptic-books.blogspot.com

العجز الفلسفي ٤٠
ما هو مكان ودور الإنسان في الكون ٤١
القناع كتعبير عن الشخصية ٤٤
دور القانون الروماني القديم في إبراز أهمية الشخص ٤٩
تقييم للفكرين اليوناني والروماني ٥١
دور اللاهوت المسيحي ٥٣
دور عقيدة الثالوث في تطوير الوعي الإنساني ٥٥
تطور إستخدام كلمتي الأقنوم والجوهر ٥٨
الكائن هو الشخص ٦٢
الثالوث يعلن جوهر الله ٦٨
المحبة كتعبير عن الحرية الإلهية ٧٣
الشخص كصورة الله ٧٤
الله ثالوث ولذلك هو حي ٧٩
صلاة الترحيم في التراث الشرقي ٨١

الفصل الثالث: من الوجود البيولوجي إلى الوجود الكنسي ٨٣
الأهمية الكنسية للشخص ٨٣
الوجود البيولوجي ٨٥
الموت والعزلة ٨٨
خلاص الشخص ٩١
الشخصية الإنسانية الكنسية ٩٢
دور المعمودية في خلق الكيان الإنساني ٩٢

coptic-books.blogspot.com

المعمودية واتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح ٩٤
الوجود البيولوجي الجديد للإنسان ٩٩
السلوك حسب «جامعة الكنيسة» ١٠٣
المسيح والكنيسة والهوية الواحدة ١٠٤
الميلاد الجديد والكيان البيولوجي القديم للإنسان ١٠٦

الفصل الرابع: الإنسان الإفخارستي أو الشخص الآتي ١٠٩
المسيح الواحد الذي لا ينقسم ١١١
تداخل حياة الدهر الآتي والزمان الحاضر ١١٧
الحياة الآتية كأساس للحياة النكسية الصحيحة ١١٨
المحبة والشهوة في النسك ١٢٠
تحرر الجسد ١٢١
الافخارستيا ومأساة الإنسان المعاصر ١٢٤
تحذير أخير ١٢٥

coptic-books.blogspot.com

مقدمة الطبعة الأولى

المؤلف

الدكتور زيزيولاس الآن الأسقف يوحنا زيزيولاس هو أستاذ آباء الكنيسة في جامعة جلاسجو في إنجلترا وجامعة تسالونيكي باليونان. وُلد في اليونان عام ١٩٣١ ودرس اللاهوت في جامعة أثينا وقدم رسالة الدكتوراه عن «وحدة الكنيسة في الأفخارستيا في القرون الثلاثة الأولى» ونشرت عام ١٩٦٥ في أثينا. والمؤلف قام بالتدريس أيضاً في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل في عدة مجالات أهمها التدريس في جامعات اليونان وأوروبا.

الكتاب

نُشر أولاً باللغة اليونانية ثم بالفرنسية عام ١٩٨١ وأخيراً بالإنجليزية عام ١٩٨٥.

الطبعة العربية

اعتمد المترجمون على الطبعات الثلاثة اليونانية والفرنسية والانجليزية وذلك لتبسيط النص وتقديمه للقارئ الذي لم يدرس المشاكل الفكرية التي يتعرض لها المؤلف.

coptic-books.blogspot.com

وتمتاز الطبعة العربية بعدة أمور أهمها أنها تمت بعد عدة أحاديث مع المؤلف نفسه لايضاح بعض النقاط الغامضة في الترجمات الفرنسية والإنجليزية وأيضاً لاقتراح الإضافات التي رأى المترجمون أنها ضرورية لايضاح الفكرة وبالتالي تعتبر الترجمة العربية أهم من الترجمتين الفرنسية والإنجليزية لأنها شرحت فكر المؤلف الذي وافق وأيد الشرح.

الأهمية اللاهوتية للكتاب

يعد هذا الكتاب هو أول محاولة في العصر الحديث تعيد إلينا خبرة آباء الكنيسة في أهم موضوع في المسيحية وهو عقيدة الثالوث القدوس. وقد خاض المؤلف معركة طويلة لكي ينقّي الفكر والخبرة من تراكم لاهوت العصر الوسيط الذي لا يهتم لا بالخبرة الليتورجية ولا بالأساس العقيدي الذي يشرح الخلاص في المسيحية. وهكذا وضع المؤلف القارئ أمام بداية الطريق الشرقي القديم الذي لا يفصل بين الله والإنسان أو بين كيان الله وكيان الإنسان، وإنما يرى في العلاقة الكيانية بين الله والإنسان ما يجعل الإنسان قادراً على تجاوز الفكر النظري الفلسفي والدخول في خبرة فكرية روحية تؤهله لفهم وتذوق حياة الله الثالوث.

وقد صرف المؤلف وقتاً طويلاً في الحديث عن الإنسان وعن كيان الإنسان ووجوده ونموه الشخصي. وفعل ذلك عن

coptic-books.blogspot.com

قصد لأنه يريد أن يقدم الإنسان إلى دراسة ذاته أولاً لكي يستطيع أن يتذوق الله ويعرف الله على أساس جديد.

نتضرع إلى الله أن يجعل هذا الكتاب بداية فكر جديد وحياة جديدة لكل قارئ.

مركز دراسات الآباء
عنه
دكتور نصحى عبد الشهيد

عيد القيامة المجيد
٣٠ أبريل ١٩٨٩

coptic-books.blogspot.com

مقدمة الطبعة الثانية

منذ أن صدرت الطبعة الأولى لكتاب الوجود شركة للأسقف يوحنا زيزيولاس، وهي تعمل بهدوء ولكن بعمق في عقول وقلوب كثيرين من الذين قرأوا هذا الكتاب. وعندما أراد الله أن يتمتع جيل جديد من القّراء بالشرح العميق والواضح الذي قدمه الأسقف يوحنا زيزيولاس، قمنا بمراجعة الطبعة الأولى ونقحناها من الأخطاء، كما أعدنا ترجمة فقرات قليلة عن النص الإنجليزي للكتاب لتصير أكثر وضوحاً.

والمجد والسجود والتسبيح للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس الآن وإلى الأبد. أمين.

المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

عنه

د. نصحي عبد الشهيد

٣ فبراير سنة ٢٠٠٦ م
٢٦ طوبة سنة ١٧٢٢ ش
تذكار شهادة ال ٤٩ شيوخ شيهيت

coptic-books.blogspot.com

الفصل الأول

الكنيسة صورة الله

عندما نتكلم عن الكنيسة، نحن لا نقصد المباني أو الكنيسة كمؤسسة بل الكنيسة ككيان حي له وجود في الكون. ذلك الوجود الخاص النابع من عطية الحياة في المسيح وبالروح القدس – آتٍ من الله. فالكنيسة هي كيان ووجود خاص جذوره في الكيان الإنساني نفسه وفي الكون وفي كيان الله نفسه. فالوجود الإلهي هو سر وجود الكنيسة ليس فقط لأن الله هو مؤسس الكنيسة وإنما لأن الله ربط بين كيانه الإلهي والإنسان والكون كله برابطة كيانية أو وجودية. هذه الحقيقة التي نناقشها الآن هي إحدى سمات فكر الآباء، وعندما ندرس هذه النقطة بالذات سوف نجد أن العلاقة بين كيان الله وكيان الإنسان وكيان الكنيسة هو موضوع هام في كتابات الآباء لأنه يعبر عن احتياجات الوجود الإنساني وعن التطلع الإنساني إلى حياة جديدة في كل مكان وزمان.

coptic-books.blogspot.com

من هنا يبدأ الحديث عن العلم الخاص بالكنيسة (أو الاكلسيولوجي) وهو حديث يعتمد على علاقة الله بالإنسان وبالكون. ومتى استوعبنا هذه العلاقة أمكننا أن نتكلم عن الكنيسة أو الاكلسيولوجي.

وبادئ ذي بدء علينا أن ننتبه إلى حقيقة الوجود الكنسي. هذا الوجود الخاص يجعل كل إنسان ينضم إلى الكنيسة ينال وجوداً خاصاً في الكون، اسمه عند الآباء «الوجود الكنسي» أو «الإنسان الكنسي». هذا الوجود الكنسي هو وجود يعتمد على حقيقة خلق الإنسان على صورة الله أي أنه مرتبط بالوجود الحقيقي أو الأصلي أي وجود الله نفسه خالق الإنسان على صورته. فالله كائن والإنسان وُهب كينونة خاصة فهو ليس مجرد مخلوق وإنما هو مخلوق على صورة الله أي أنه كائن مثل الله[1].

وعندما نقول إن الإنسان كائن وموجود وله وجود خاص أي أنه على صورة الله، فهذا لا يعني أخلاقاً خاصة وتقدماً حضارياً وفكرياً للفرد بل يعني بالدرجة الأولى الوجود المبني والقائم على شركة بين كل البشر، لأن كل إنسان مخلوق على صورة الله وله علاقة بالبشر وبالكون، لأن صورة الله تتحقق من خلال علاقة البشر بعضهم ببعض وبالكون كله وبالله نفسه. بدون الشركة والعلاقة التي نتحدث عنها هنا لا يمكن

(١) القديس أثناسيوس «تجسد الكلمة» (فصل ٣: ٤ - ٥)

coptic-books.blogspot.com

أن يكتمل الإنسان. فالصورة الإلهية في الإنسان هي أصلاً صورة شركة وبالتالي لا يمكن أن ينجح الفرد الواحد في تحقيق هذه الصورة بمفرده وإنما بالشركة في حياة الجماعة. هذه الجماعة هي الكنيسة فهي البشرية التي تؤمن بأنها صورة الله وبأنها مدعوة إلى تحقيق هذه الصورة وإلى أن تحيا مثل الله في شركة، لأن الله أسس الشركة بخلق البشر وبخلق الكون وبالتالي لا يمكن أن يحيا الإنسان مثل الله إلا بتحقيق الشركة في الجماعة وفي الكون. هذه الشركة هي الحياة الإنسانية الكنسية التي نسميها الوجود الكنسي أو الكيان الكنسي.

وعندما تدعو الكنيسة الإنسانية كلها إلى أن تحيا في شركة وأن تحقق صورة الله في الإنسان فهذا يعني أن الكنيسة نفسها تمارس هذه الحياة وأن وجودها في الكون إنما هو وجود إلهي مثل الله وأن نظامها وقانونها وخدامها وطقوسها ... إلخ إنما يعبر عن هذه الحياة الخاصة. وبالطبع هذا يعني أن يكون إيمان الكنيسة صحيحاً أي الإيمان الأرثوذكسي وهو الرؤية الصحيحة للوجود الإلهي ولكيان الله نفسه. وعندما حاربت الكنيسة الهرطقات التي حاولت تغيير رؤية الكنيسة لكيان الله وجوهره لم تكن الكنيسة تحارب موضوعاً عقيماً كما أنها لم تبدد طاقتها في الصراع ضد موضوع تافه يعتبر ترفاً وإنما كانت الكنيسة تصارع في سبيل الاحتفاظ بالرؤية الصحيحة لله ولكيانه الذي بدونه لا يمكن أن تتحقق صورة الله في الحياة الإنسانية ولا يمكن أن يكون للكنيسة وجود خاص على صورة الله.

coptic-books.blogspot.com

الإيمان بالله في المسيحية والوثنية

لم يترك لنا الآباء موضوعاً مستقلاً في اللاهوت اسمه الاكلسيولوجي (علم الكنيسة) وعدم وجود هذا الموضوع المستقل هو أمر له دلالة خاصة وخطيرة، لأن الآباء اهتموا بوجود الله وكيانه وبذلك وضعوا أساس الفهم الصحيح للكنيسة. طبعاً لم يناقش الآباء بل لم يهتموا أصلاً بموضوع وجود الله لأن الالحاد لم يكن موضوعاً يشغل بال البشرية في تلك الفترة من تاريخ الإنسان وإنما كانت البشرية كلها اليهود والوثنيون والمسيحيون يؤمنون بوجود إله. لكن الفرق الدقيق بين إيمان المسيحيين وغيرهم ليس في موضوع وجود الله وإنما في طبيعة جوهر الله وكيانه. ما هو كيان الله؟ وهذا السؤال هو السؤال الأول والدقيق الذي يميز المسيحية عن غيرها وهو السؤال الذي دار حوله صراع الأجيال الأولى. وإجابة هذا السؤال تعني نتائج هامة وخطيرة بالنسبة للإنسان وبالنسبة للكنيسة لأن الإنسان والكنيسة إنما هما «صورتان لله».

لاهوت الآباء والفلسفة اليونانية القديمة

كانت الإجابة على السؤال السابق الخاص بالكيان الإلهي في عصر الآباء صعبة بسبب النظريات الفلسفية اليونانية السائدة في ذلك الزمان والتي كانت ترى أن جوهر الله وجوهر الكون هما في الواقع وحدة واحدة، لا يجوز فيها الفصل أو التقسيم. فكيف يمكن للآباء أن يقبلوا هذه

coptic-books.blogspot.com

النظرية الفلسفية التي تتعارض مع الوحي الإلهي في الكتاب المقدس؟ والذي يعلن بكل وضوح أن الله كائن حر غير مقيد بالكون والدليل على حرية الله المطلقة هو أنه خلق الكون والإنسان من العدم. من هنا جاء رفض الآباء للفلسفة الأفلاطونية التي كانت تعلم بأن الخالق خلق الكون من مادة أزلية وبالتالي لم يكن الله حراً في خلق الكون بل لا وجود للحرية الإلهية بالمرة طالما أن المادة الأزلية قد فرضت على الخالق أن يخلق الكون.

ورفض الآباء الاتجاه المتصوف القديم المعروف باسم الغنوصية أو «المعرفية» التي كانت ترى أن الله متعالي جداً ولا يمكن أن يتصل بالكون لاسيما المخلوقات المادية ولذلك افترضت الغنوصية وجود «هوة» ساحقة لا يمكن عبورها بين الله والكون.

فماذا يفعل الآباء إزاء إنطولوجية[٢] فلسفية ترى أن الله والكون هو وحدة واحدة وأخرى متصوفة غنوصية ترى أن الله بعيد تماماً عن الكون؟ هنا يجب أن نقول أن الآباء أنشأوا أنطولوجية مسيحية جديدة تشرح وجود الله والإنسان والكون وأن الآباء أنشأوا هذا الاتجاه الفلسفي الجديد لكي يجيب على أسئلة الفلاسفة والغنوصيون وأن هذا في الواقع هو أهم إنجاز فلسفي في عصر الآباء.

(٢) انطولوجية ontology أي العلم الخاص بالوجود وبكيان المخلوقات.

coptic-books.blogspot.com

الأساس الكنسي لفلسفة آباء الكنيسة

اختبر الآباء الكنيسة وصار هذا الاختبار الكنسي هو الرؤية المسيحية التي مكنت الآباء من كسر الحلقة المفرغة التي دار فيها الفكر اليوناني القديم بشقيه الفلسفي الأفلاطوني والتصوفي الغنوصي، أي «وحدة الله والكون» و «الهوة» التي تفصل بين الله والكون. ولكن كسر هذه الحلقة المفرغة لم يتم على يد المدافعين من الآباء مثل الشهيد يوستيونوس ولا على يد رواد مدرسة الاسكندرية اكليمنضس واورجينوس. فهؤلاء الآباء أغراهم الفكر اليوناني الفلسفي ولم يستطيعوا مقاومة الفخ الفلسفي الملتصق بالانطولوجيا اليونانية فحاولوا كمسيحيين مصالحة الإعلان الإلهي المسيحي مع الفلسفة. كان هؤلاء أساتذة وفلاسفة وهم فعلاً «دكاترة» الكنيسة الأولى.

أما الأباء من رعاة الكنيسة فكانوا عكس الفلاسفة المسيحيين كان لاهوتهم رعائياً. وهؤلاء مثل أغناطيوس الأنطاكي وإيريناوس وأثناسيوس قد استوعبوا حقيقة وجود الله وجوهره من خلال الاختبار الكنسي أي الوجود الكنسي أو من خلال اختبار الحياة الجديدة في المسيح التي تؤهل الإنسان لأن ينال الكيان الكنسي. وأدرك هؤلاء الآباء من خلال هذا الاختبار حقيقة هامة وهي أن كيان الله ووجوده إنما يعرف من خلال العلاقة

coptic-books.blogspot.com

الشخصية والمحبة الشخصية فالوجود يعني حياة والحياة تعني الشركة.

الإفخارستيا والوجود الكنسي

الانطولوجيا أو الوجود المسيحي هو وجود كنسي نابع من الاختبار الكنسي الذي يمارس في الافخارستيا. هذا الاختبار قاد الآباء وأرشدهم إلى معرفة الكيان الإلهي واستطاع هؤلاء الآباء أن يصوغوا اللاهوت الخاص بجوهر الله وكيانه وهو ما سنراه في كتابات الآباء أثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس النزينزي وغريغوريوس النيسي.

وسوف ندرس في إيجاز شديد نتائج الاختبار الكنسي وكيف طور هذا الاختبار النظرة الفلسفية التي بدون اختبار الافخارستيا والحياة الكنسية ما كان الآباء قد استطاعوا تطوير التعليم اللاهوتي الخاص بطبيعة الله وكسر الحصار الفكري الفلسفي اليوناني. هذا التطور الفكري والفلسفي نجح في التعبير عن عقيدة المسيحية لأنه لم يكن مجرد فلسفة وإنما كان اختباراً كنسياً للكيان الكنسي الذي نحصل عليه بالانضمام للكنيسة والذي يجعل وجودنا في هذه الحياة له دلالة خاصة لأنه وجود كنسي.

الوجود شركة

وجود الله هو وجود قائم على علاقة والعلاقة تعني شركة وبدون الشركة لا يمكن أن نتكلم عن وجود الله. ومن يفسر

coptic-books.blogspot.com

الماء بالماء إنما يقع في دائرة التكرار والغموض وكذلك من يقول أن «الله هو الله» ، لأنه لا يقول شيئاً عن وجود الله.

إذا قلنا أن أ = أ وهذه قضية منطقية مغلقة تجعلنا نتجاوز معنى الوجود كحياة لأن أ = أ لا تقودنا إلى شيء. كذلك إذا قلنا أن الله هو الله فقدنا كل اتصال شخصي به.

وحتى الاعتراف الصحيح بأن «الله واحد» يصبح بلا معنى في اللاهوت المسيحي ما لم يكن هذا التوحيد هو توحيد شركة أي قائم على الثالوث القدوس. فالثالوث هو أول الوجود وهو لذلك لا يضاف إلى التوحيد وإنما يشرح التوحيد. وحتى عندما نقول إن جوهر الله هو واحد فإننا نفهم أن المقصود هو وحدة الجوهر. وفي الغرب كانت كل كتب اللاهوت تشرح وحدانية الله ثم تضيف موضوع الثالوث، وفي الشرق بكل أسف وقعنا في نفس الخطأ.

هذا الخطأ يجعلنا نتكلم عن جوهر الله بشكل فلسفي مجرد بلا مضمون وجودي حقيقي لأن الوجود الحقيقي هو في الشركة ولا وجود بلا شركة.

من هنا ندرك أن الشركة هي أساس الوجود وأن أي كيان حقيقي لا يمكن معرفته بدون الشركة وهذا ما أنجزه الآباء. وإذا كان الوجود شركة فإننا لا نفهم الوجود بل لا نستطيع أن نفهمه إلا من خلال علاقة، وبالتالي لا يمكننا أن نفهم الوجود كوجود في حد ذاته، لأن كل كائن لا يوجد في حالة

coptic-books.blogspot.com

عزلة ولا يحيا كفرد. ولا يوجد كائن قائم بذاته يمكن فهمه كما هو في ذاته، وهذا ما أنكره الآباء على أرسطو فهو يطلب فهم الوجود وكيان كل الموجودات كما هي وليس كما هي في علاقة وشركة مع غيرها. وشكراً لله الكائن في شركة مع ذاته ومع الخليقة.

وهنا يمكننا أن نقول إن العالم القديم كله سمع لأول مرة في تاريخه أن الشركة هي التي تجعل أي كائن كائناً فعلاً وأن الكينونة والوجود لا تقوم إلا بالشركة حتى في الله نفسه.

coptic-books.blogspot.com

أبوة الله هي علة وسبب الوجود

إذا كان الوجود شركة تصبح الشركة هي جوهر الوجود. طبعاً نستطيع أن نتصور الشركة على أنها علاقة ترضي طرفين أو أنها هي بحد ذاتها هدف ولكن ذلك يجعل الوجود غامضاً فالوجود من أجل شركة أو علاقة يحول الوجود والشركة إلى قضية وجودية فلسفية مثل تلك القضية الوجودية التي طرحها مارتن بوبر Buber (٣) حيث اعتبر أن «أنا» هي الوجود وأن «أنت» أي الآخر هو غاية الوجود وأصبح الوجود عبارة عن بناء قائم على «أنا وأنت» أي «أنا والآخر». هذا الفكر الفلسفي الذي يطرح علينا الوجود أو الكيان بشكل فلسفي مغلق تصبح فيه غاية الوجود هي الوجود نفسه قد تجاوزه آباء كبادوكية باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزيزي وغريغوريوس النيسي عندما عادوا إلى الكتاب المقدس والتقليد الكنسي الذي أبرزه رعاة الكنيسة مثل أثناسيوس وقالوا إن وجود الله هو أبوة الله وأن كيان الله ليس جوهراً غامضاً يتمتع بصفة الوجود من أجل الوجود وإنما هو أقنوم الآب، وبالتالي صار كيان الله نفسه متأقنماً أي شخصاً يعلن عن حقيقة كيانه كآب. وبات من الواضح أن علة أو سبب الوجود ليس مبدأ أو علاقة غامضة أو فكرة مجردة وإنما هو شخص أو أقنوم الآب. هذا يعني أن الله نفسه غير خاضع لبناء

(٣) مارت بوبر فليسوف ألماني من أصل يهودي له مؤلفات هامة في الفلسفة ويبدو أنه اعتنق المسيحية حسب دراسات البعض.

coptic-books.blogspot.com

فلسفي يُفرض عليه وإنما جوهره وكيانه المتأقنم يجعله فوق كل القياس العقلي النظري. وإذا ارتفع الوجود الإلهي فوق الفهم النظري بات من الضروري أن نفهم أن الله لا يُعرف إلا من خلال الاختبار وأن وجود الله ليس قضية فلسفية ولا الله «واجب الوجود» من أجل الوجود وإنما هو «واجب الوجود» كآب.

إذاً الوجود شركة بمعنى دقيق يعبر عنه اللاهوت الشرقي بدقة أي أن جوهر الله ليس غامضاً وفكرة مجردة بل كيان أبوة يخلق شركة وليس مجرد بناء وجودي نتأمله من الخارج ولا نتقرب منه لأنه موجود من أجل التمتع بالوجود بل وجود الله وجوهره هو وجود وجوهر في أشخاص أو أقانيم الثالوث حيث الآب نفسه هو علة وسبب وجود أقنومي الابن والروح القدس.

الآب هو علة وسبب وجود الابن والروح

إذا كان وجود الله نفسه متأقنماً أي أقنوم الآب أو شخص الآب فهذا يعني:

(١) أن جوهر الله ووجوده غير خاضع لضرورة الوجود الذي تعبر عنه العبارة الفلسفية القديمة «الله موجود لأنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك» فوجود الله غير مفروض عليه[٤].

(٤) الوجود فرض على الخليقة لأنها جاءت من العدم ولم تكن تملك حرية الوجود عندما خُلِقَت ولكن الخليقة تملك حرية البقاء والنمو. والله لم يأت من العدم أي أنه غير مخلوق وحريته نابعة من كيانه.

coptic-books.blogspot.com

(٢) وحتى الشركة نفسها ليست مفروضة على الله لأنها ليست بناء يحتم على الله استخدامه وبالتالي لا يجوز أن نقول إن وجود الله شركة لأن الله لا يستطيع أن يكون إلا شركة. وحتى قولنا أن الله محبة يجب أن يتجاوز فرض المحبة على كيان الله. فلا شئ يمكن أن يفرض على الله.

ولكن ما علاقة هذا بأقنوم الآب؟ الجواب يتضح إذا تأملنا حقيقة الإيمان المسيحي. فالابوة في الله هي شخص أو أقنوم حرّ وبالتالي الكيان والوجود الإلهي ليس فكرةً أو مبدأً أو بناءً خاضعاً لضرورات الوجود، بل هو الآب أي الأقنوم. وبالتالي هو حرية لأن الشخص يمارس حريته بعكس المبدأ أو الفكرة أو الوجود غير المتأقنم (كالأحجار والأشجار) فهو خاضع لضرورة وجوده لا يمكن أن يتجاوز هذه الضرورة، أما الأقنوم والوجود المتأقنم فهو وجود حقيقي يملك حرية وجوده ويحب بحرية وتصبح المحبة فيه متأصلة في كيانه ووجوده، وبالتالي يحقق ذاته ووجوده كشخص وتصبح هوية الشخص ظاهرة لأنها هوية تُعلَن في شركة وعلاقة. هنا الإعلان عن الذات والشركة هما مسألة واحدة لأن الإعلان عن الذات هو كشف الوجود كشركة بين الأشخاص الذين يشتركون في هذه الشركة. ويصبح الإعلان عن الذات ليس دعوة لعلاقة خارجية بل دعوة إلى علاقة كيانية.

coptic-books.blogspot.com

المعمودية والهوية المسيحية

الهوية Identity هي محاولة كل إنسان أن يعرف نفسه ويحدد صفاته وقدراته وطموحه وغاية وجوده. وطالما أننا قلنا سابقاً إن الله خلق الإنسان على صورته صار من الضروري أن نكتشف الهوية المسيحية من خلال علاقة الله بالإنسان.

وإذا كان الوجود شركة فإن دراستنا للآباء وكل ما قالوه عن كيان الله وجوهره تقود إلى نقطتين أساسيتين كل منهما تُعتبر ركيزة أساسية للوجود وللحياة الكنسية أو حسب المصطلحات المعاصرة للأنطولوجي (الوجود) والإكلسيولوجي (الكنيسة).

(١) لا وجود حقيقي بلا شركة. لا شيء ولا شخص يوجد كفرد يحيا في عزلة. ولا يمكن لمن يوجد من أجل ذاته فقط أن يفهم وجوده. هذا يعني بشكل حاسم أن الشركة هي دعامة من دعامات الوجود في الانطولوجي.

(٢) الشركة التي لا تصدر من الأقنوم أي الشخص الذي له وجود حقيقي يجعله حراً، والشركة التي لا تقود الأقنوم أي الشخص الحر الذي يتمتع بوجود حقيقي، هذه الشركة لا تعبر عن صورة الله أي أنها ليست صورة لكيان ووجود الله نفسه. فالأقنوم أو الشخص لا يمكن أن يوجد ويحيا بلا شركة، ولكن كل أشكال ومحتويات الشركة التي تنكر أو تحاول أن تقضي على الأقنوم غير مسموح بها ولا هي مقبولة أصلاً.

coptic-books.blogspot.com

هنا يبدو ظاهراً بوضوح أن اللاهوت المسيحي إنما يعتمد على أنطولوجيا خاصة به وهي أنطولوجيا تجعل الشخص أو الأقنوم هو قلب اللاهوت المسيحي. وهذا ظهر لأول مرة في تاريخ الفكر البشري في كتابات الآباء وعبرت عنه الرؤية الآبائية لوجود الله وكيانه ليس بطريقة فلسفية عقيمة وإنما كاختبار يعاش في «سر الكنيسة».

لقد ظهرت العلوم الإنسانية وعلوم الاجتماع لكي تجاهد من أجل تأكيد أهمية الوجود الإنساني. وظهر فلاسفة الوجودية في عصرنا الحديث وهؤلاء بكل أمانة فكرية إنسانية تجعلهم جديرين بلقب فلاسفة، عبروا بكل السبل الإنسانية المتاحة عن حقيقة هامة وهي أن الشخص الإنساني ليس حراً بشكل تام وإنما يظل مقيداً بضرورات وجوده وبالتالي تصبح الحرية سؤال وبحث بلا جواب وبلا تحقيق. وفي اللاهوت المسيحي نرى بكل وضوح أنه توجد هوة بين كيان الله وكيان الإنسان، هذه الهوة هي الهوة التي تفصل بين الخالق والمخلوق. فالمخلوق هو كل وجود خلق بواسطة آخر وفي حالة الإنسان فإن كل إنسان ينال وجوده وبالتالي فإنه يفقد حريته أي قدرته على أن يتحرر تماماً من طبيعته أو من جوهره ومن الضرورات التي تمليها عليه القوانين الخاصة بوظائف الأعضاء وغيرها لأن محاولة التحرر منها تقود في أغلب الحالات إلى الموت. وحتى في حالات الشركة نفسها وفي حالات المحبة والعلاقات الاجتماعية يجد الشخص أنه إزاء

coptic-books.blogspot.com

مساومات كثيرة تجعل حريته نسبية بسبب الخضوع إلى ضرورات الحياة وما تحتمه الحياة الاجتماعية.

ولذلك جاءت المسيحية لتقول للإنسان أن البحث عن الحرية المطلقة وتحقيق هذه الحرية إنما يتحقق بالميلاد الجديد «وبالميلاد من فوق» أي المعمودية. هنا يولد الإنسان من جديد ويتحول إلى كائن كنسي يتأقنم ويصبح بالتأقنم صورة للكيان الإلهي. وبالتأقنم يوجد ويحيا بالأسلوب الذي يوجد ويحيا به الله. فالمعمودية هي التي تؤهل الكنيسة وتجعلها توجد وتحيا كصورة للثالوث.

من الآب بالابن في الروح القدس

شدد لاهوت الآباء منذ بداية تكوينه على حقيقة هامة وهي أن الإنسان قادر على أن يقترب من الله من خلال الابن وفي الروح القدس فقط دون أي أسلوب أو وسيلة أخرى. فحقيقة أن الإنسان في الكنيسة هو «صورة الله»، حقيقة تعتمد على إعلان الله الآب لنفسه عن طريق الإبن والروح القدس أي تعتمد على عمل المسيح والروح القدس في التاريخ. هذا التدبير أن تدبير إعلان الثالوث في التاريخ هو أساس الاكلسيولوجيا (علم الكنيسة).

فما قام به المسيح وما أعطاه لنا في الروح القدس يجعل تجديد الإنسان وولادته من فوق هو خلق على صورة الثالوث،

coptic-books.blogspot.com

وبالتالي يصبح الخلق الجديد والكيان الكنسي الذي يوهب في المعمودية هو إعداد الكنيسة لكي تكون على صورة الثالوث. لكن هذا الخلق الجديد إنما يهدف لا إلى تكوين الكنيسة فقط لأن هذا يعيدنا إلى الوجود من أجل الوجود وإنما إلى تكوين الكنيسة على صورة الثالوث لكي تستطيع وقد خُلِقت من جديد أن ترى الله كما هو، أي رؤية الله كثالوث وأن تتأمل كيانه الثالوثي الأزلي. إذاً ما يوهب من الآب بالابن في الروح القدس اي عمل الثالوث وتدبير الخلاص هو ما يكوّن الكنيسة ويخلق الكيان الكنسي على صورة الله الثالوث، ويعطي لنا إمكانية رؤية الوجود الإلهي الأزلي للثالوث.

مميزات اللاهوت الشرقي

لقد دخل الله تاريخ الإنسان بالتجسد ولكنه ظل فوق التاريخ وأعطى عطايا كثيرة في الزمان ولكنه جعل كمال العطية في الدهر الآتي.

وأقام الخلاص بشكل منظور في تجسد الابن مما جعل اللاهوت الخاص بالكنيسة «لاهوت إيقونة» أي لاهوت يُعلن في الأشباه والرموز ومما هو منظور، كل هذه المميزات الشرقية للاهوت المسيحي إنما تجعل اللاهوت الشرقي لاهوتاً حياً. هذه الحياة هي ما نسميها بالتقليد الحي الذي يحيا ويعلم اللاهوت في الليتورجيا حيث نتأمل جوهر الله وكيانه

coptic-books.blogspot.com

وجوهر الكنيسة وكيانها بعيون العابدين في وليمة الافخارستيا، وهذه الوليمة أي الاجتماع الافخارستي هي صورة الدهر الآتي نفسه[٥]. وربما لذلك السبب يظن البعض عندما يسمعون الأرثوذكس يتكلمون عن الأرثوذكسية أنهم يتكلمون عن أفلاطونية مسيحية، أي رؤية مستقبلية للحياة السماوية دون أي اهتمام بالتاريخ ومشاكله. ولكن الكنيسة وهي مجتمعة حول الافخارستيا تكون فعلاً في الدهر الآتي، بعكس اللاهوت الغربي الذي يحصر اللاهوت والاكلسيولوجيا (الكنيسة) في إطار التاريخ إلى الدرجة التي ينعكس فيها الفكر الزمني على وجود الله الأزلي. بينما يجب الاحتفاظ بعلاقة الخالق والمخلوق أي الله والعالم، والتاريخ والدهر الآتي في علاقة تبادلية حتى لا يضيع بُعد الدهر الآتي. والخطر الحقيقي هو أن الكنيسة تتأرخ Historicized أي تنحصر في الزمان وتفقد قدرتها على إعلان الحياة في الدهر الآتي وبالتالي تصبح الكنيسة «صورة للعالم» ونموذج للمشاكل الزمنية ومشاكل التاريخ وليست «صورة الثالوث». هذا يفصل العلاقة العضوية بين وجود وكيان الله وبين الوجود الإنساني الكنسي، وتصبح الاكلسيولوجيا في

(٥) تعبر القداسات الشرقية عن وجودنا في السماء في أثناء الصلاة في الصلوات والطقوس وبالاتجاه نحو الشرق حيث فردوس الله وبحضور الرتب الملائكية وقديسي الكنيسة وشهدائها عبر كل العصور. وتعبّر الكتابات اللاهوتية عن ذلك بكلمة واحدة وهي الاسخاتون (الأخروي) ومنها جاءت الاسخاتولوجيا.

coptic-books.blogspot.com

غير حاجة إلى الثيولوجيا (علم اللاهوت) أي لا تحتاج الكنيسة إلى علم اللاهوت لكي تفهم ذاتها وتحقق وجودها وإنما تحتاج (في هذه الحالة) إلى المعرفة الإنسانية وحدها وما يقدمه التاريخ وحده.

لكن اللاهوت الأرثوذكسي هو أيضاً في خطر، فهو معرَّض لأن يفقد تجسيد الكنيسة، وعكس اللاهوت الغربي فإنه يحيا في التاريخ أي الماضي في شكل لاهوت متطرف ينحصر في عمل المسيح وحده Christocentric ومحاولة الاقتداء بالمسيح فقط Imitatio Christi باستبعاد الروح القدس أو الاستغراق في العمل الاجتماعي أو الاكتفاء بالسلوك الخلقي الذي يحاول أن يلعب دور صورة الله في الإنسان وغالباً يفشل لأنه بدون نعمة الثالوث. و لذلك فإننا نحتاج إلى لاهوت الشرق ولاهوت الغرب معاً، ويا ليتهما يلتقيان لكي ينهلا من كتابات الآباء ويستعيدان الرؤية الآبائية التي تجعل كليهما قادرين على الابتعاد عن الأخطار التي ذكرناها. والوجود الكنسي يحفظ لنفسه حقيقته الوجودية الكنسية إذا رفض أن يفصل نفسه عن وجود الله وعن متطلبات هذه العلاقة العضوية لاسيما حياة الدهر الآتي وعن التاريخ. أما الجانب النظامي والمؤسسات الكنسية فهي يجب أن تجسد حياة الدهر الآتي فيها دون أن تفقد العلاقة التبادلية بين هذا الدهر (التاريخ) والدهر الآتي، وبين غير المخلوق والمخلوق، أي بين كيان الله وكيان الإنسان والعالم.

coptic-books.blogspot.com

دور الافخارستيا

ما هي همزة الوصل بين كيان الله والكيان الكنسي للإنسان؟ بل كيف نجمع بين التاريخ وحياة الدهر الآتي في علاقة تبادلية دون أن نقضي على التاريخ أو على حياة الدهر الآتي؟ لكي يتحقق هذا أو ننجح في الوصل والجمع بين الله والإنسان وبين التاريخ وحياة الدهر الآتي، نحتاج إلى إعادة اكتشاف الوعي بالافخارستيا وأهميتها في الكنيسة الأولى ودور الافخارستيا الحاسم في تكوين الوعي بالكنيسة.

وإعادة اكتشاف الوعي بالكنيسة عن طريق الافخارستيا ظهر في متاهات لاهوت العصر الوسيط أي اللاهوت المدرسي Scholastic الذي يمثل مرحلة «السبي البابلي» للأرثوذكسية المعاصرة. فلاهوت العصر الوسيط صنف الافخارستيا كسرّ كنسي ضمن أسرار كنسية أخرى أو أنه وسيلة أو واسطة من «وسائط النعمة» تقدمها الكنيسة من آن لآخر للمؤمنين. لكن الإيمان القديم السائد في الشرق والغرب حتى القرن الثاني عشر – والذي دون أن ندرس تفاصيله الدقيقة بل نكتفي بتلخيص خطوطه العامة – كان يرى في الافخارستيا الحقيقة القديمة التي سلمها الرسل وهي أن الاحتفال بالافخارستيا هو اجتماع شعب الله لكي يكونوا شعباً واحداً. ففي الافخارستيا تصبح هذه الوحدة حقيقةً وواقعاً يُمَارس في الصلوات ويخلق الوعي بالكنيسة الذي

coptic-books.blogspot.com

يعبر عنه الاجتماع الافخارستي نفسه. فالاحتفال يتم في يوم الرب أو يوم الأحد أو يوم قيامة الرب أي يوم حياة الدهر الآتي. فالكنيسة في الصلوات لا تحيا ذكرى تاريخية – تستعاد فكرياً – للعشاء الأخير ولحياة المسيح على الأرض وللصليب والقيامة بل تحيا الكنيسة هذا كله لأن حياة الدهر الآتي ماثلة أمامها وحاضرة إذ تعبّر عنها الصلوات والطقوس الكنسية. وهكذا ففي الافخارستيا تتأمل الكنيسة حياتها السماوية وتدرك طبيعتها الآتية عندما تتذوق حياة الثالوث القدوس نفسه. وإذا شئنا أن نعبّر عن هذا بكلمات أخرى فإننا نقول إن الكنيسة تدرك في الاحتفال بالافخارستيا أن طبيعة الإنسان الحقيقية هي صورة لله أي صورة لكيان الله نفسه. وأن هذه الطبيعة تنمو نحو الأصل الذي هو الله. وهنا تصبح العناصر الأساسية التي بُنِيَتْ عليها الكنيسة وشيدت مثل القوانين والمجامع والطقوس هي العناصر التي قُبِلَت في الافخارستيا، لأن تاريخ الكنيسة وبنيتها وكيانها كله إنما ينال شهادة صحته في الافخارستيا ويصبح حقيقةً وشرعاً حسب التعبير اللاهوتي المتأخر، أو يصبح «يقيناً» حسب تعبير اغناطيوس الانطاكي عندما تقبله الجماعة في الافخارستيا فيصبح بذلك صحيحاً من الناحية الكنسية(٦). فالرسامات لدرجات

(٦) عندما يقبل المؤمنون أي شيء في القداس فهذا يعني أنه قبول جماعي وليس قراراً أو تصرفاً فردياً، وهذا ظاهر بكل وضوح حيث تمارس الكنيسة أهم ما يمس حياة الجماعة مثل المعمودية والرسامة والزواج... إلخ في القداسات.

coptic-books.blogspot.com

الكهنوت الأساسية[٧] لا تمارس خارج اجتماعات الافخارستيا بل في الافخارستيا حيث يوحد شعب الله كله والخدام، وحيث يوزع الروح القدس العطايا الروحية الحرة[٨] لكي تبنى الكنيسة وتُشيّد روحياً.

وهكذا لا تصبح الافخارستيا احتفالاً بتاريخ قديم لكنيسة قديمة بل هي بناء للكنيسة وتشييد لكيانها الذي يجعل الكنيسة قادرة على أن تكون وأن توجد. فالافخارستيا هي التي تشيّد كيان الكنيسة وتبنيه.

وتبعاً لذلك تصبح الافخارستيا[٩] ذات قيمة هامة فهي التي تمنح دوام وحدة الكل وتوحد الشعب كله في اختبار خاص بعمل المسيح وبالروح القدس. وتعبِّر بذلك تعبيراً خاصاً عن رؤية حياة الدهر الآتي من خلال التاريخ الكنسي حيث تنسجم حياة الكنيسة كمؤسسة مع عطايا الروح القدس. وقد استطاعت الكنيسة أن تحفظ علاقة الله بالإنسان وعلاقة حياة الدهر الآتي بالتاريخ دون استقطاب أو ثنائية الانفصال وذلك للأسباب التالية :

---

(٧) يقصد بالدرجات الأساسية الاسقف – القس – الشماس. لأن الكنيسة البيزنطية تعتبر صلوات تكريس القارئ والمرتل، يمكن أن تمارس خارج القداس، بينما يتمسك الطقس الشرقي القبطي والسرياني بضرورة ممارسة هذه الصلوات في القداسات (المعرب).

(٨) راجع صلاة استدعاء الروح القدس في القداس المرقسي (الكيرلسي).

(٩) الافخارستيا هنا تعني السر وهو الصلوات، الطقوس، اجتماع المؤمنين،

coptic-books.blogspot.com

(١) تعلن الافخارستيا حقيقة تاريخ التدبير الإلهي فكل ما سُلم في التقليد (أنظر ١كور ١٠: ٢٣) هو ما يمارس في الافخارستيا وبالتالي تصبح الافخارستيا هي التقليد الخاص بحياة وصلب وموت وقيامة المسيح. وهكذا بالشكل أي الخبز والخمر والصلوات والطقوس وهي البنية الظاهرة غير المتغيرة منذ ليلة العشاء الرباني يصبح التقليد معروفاً وممارساً. وما يربط كل كنيسة محلية بكنيسة الرسل في سلسلة تاريخية متصلة الحلقات إنما هو ممارسة الافخارستيا، حيث يظهر فيها بوضوح تاريخ المسيح نفسه. أو في إيجاز شديد إن الافخارستيا هي خاصة بكل ما أُسِّسَ وما سُلِّم، وبذلك تصبح الافخارستيا هي تحقيق التاريخ دون منازع آخر حيث يتقدس فيها الزمان، وتعلن فيها حقيقة الكنيسة، بل إن الافخارستيا تحفظ الكنيسة كمؤسسة وبنية لأنها تعطي للكنيسة الاستمرار التاريخي.

(٢) أما إذا اعتبرنا الافخارستيا كحدث تاريخي فريد شيد على أساس تاريخي أي الماضي، وأن الافخارستيا توجد في الكنيسة لأن الكنيسة استطاعت أن تحفظ الافخارستيا بالممارسة الدائمة فهذا الفهم الخاطئ يجعل الافخارستيا عندنا غير تلك الافخارستيا التي عرفناها في كتابات الآباء وفي حياة الكنيسة الأولى. وهنا إذا شئنا أن ندقق النظر في هذا الفهم الخاطئ فإن أول ما يسترعي الانتباه هو أن الكتاب المقدس الذي حذرنا من سيطرة الحرف «لأن الحرف يقتل» هو نفسه

coptic-books.blogspot.com

يحذرنا من أن التاريخ نفسه يقتل وأن الروح القدس هو الذي يعطي الحياة، والروح يعطي الحياة من خلال استدعائه في القداس حيث يحل لكي يمنح الكنيسة حياة وهذا يجعل كيان الكنيسة ليس كياناً تاريخياً فقط مشيداً على قاعدة تاريخية بل ان الروح القدس يجعل التاريخ قوة حياة ويذيب التاريخ نفسه بل والزمان في الأبعاد المطلقة لحياة الدهر الآتي. وهذا هو الدور الرئيسي الخاص بالروح القدس لأنه، أي الروح القدس الحاضر في الأفخارستيا يجعل الجماعة الإفخارستية تدخل الدهر الآتي. وعندما تدخل الكنيسة بالأفخارستيا إلى الدهر الآتي تصبح الكنيسة بذلك اسخاتولوجية (أخروية). وعندما تحيا الكنيسة في الدهر الآتي لا تصبح الكنيسة مستعبدة للتاريخ ولا لضرورات الوجود الإنساني الذي تفرضه الطبيعة المخلوقة والتي تدعونا أن نكون أفراداً لكي يحافظ كل فرد على ذاته بل إن حياة الدهر الآتي تعطينا مذاق الحياة الأبدية كمحبة وتعطينا كشركة البقاء كصورة الله، أي تجعلنا صورة لكيان الله غير المهدد بالموت.

(٣) لا يستطيع أي إنسان يدرس حياة الكنيسة الأولى أن يتصور إجتماعاً للافخارستيا بلا شعب الكنيسة كله في كنيسة واحدة. فالاجتماع هو الذي يجعل الشركة حقيقة تمارس وهذا في حد ذاته هو ما يجعل الافخارستيا هي تعبيرٌ خاصٌ وفريدٌ عن الحياة الكنسية. فالافخارستيا لا تجعلنا نحس بالكنيسة كمؤسسة تأسست في التاريخ فقط بل تجعلنا أيضاً نحس

coptic-books.blogspot.com

بالكنيسة كشركة حرة غير مستعبدة لأي ضرورة من ضرورات الوجود مما يجعل الكنيسة إيقونة تعلن لنا منذ الآن الحياة الإلهية في الملكوت الآتي.

وفي العلم الخاص بالكنيسة أي الاكلسيولوجي لا يوجد قطبان كل منهما يستقطب شيئاً ما حوله أي قطب المؤسسة وقطب التاريخ وأحداثه، فالافخارستيا تمنع هذا الاستقطاب لأن كيان الكنيسة ووجودها هو عطية من المسيح وكل عطية إلهية هي غير خاضعة لأي مؤسسة. ولأن كيان الكنيسة هو عطية ثابتة على أساس تاريخي، صار الأساس التاريخي شهادة وليس قيداً وذلك لأن كل مرة تجتمع الجماعة في الافخارستيا تنال الجماعة كيانها من الروح القدس، وتصبح الكنيسة ليست هيئة يشهد لها التاريخ، بل جماعة حية بالروح القدس لها كيان حي وحقيقي تناله في كل مرة تُقَام فيها الافخارستيا.

(٤) ومما سبق نرى أن الافخارستيا ليست سراً موازياً لكلمة الله[١٠]. فالافخارستيا هي التي تحول البعد التاريخي أي الكلمات المكتوبة في وثائق التاريخ إلى حياة الدهر الآتي. هنا تختفي ثنائية الحرف والروح، لأن صوت المسيح التاريخي أي الكلمات التي سجلت في العهد الجديد بل صوت كل أسفار

(١٠) منذ القرن السادس عشر أي بظهور حركة الإصلاح اعتبر اللاهوت الغربي بفرعيه الكاثوليكي والبروتستانتي أن الحياة المسيحية قائمة على التوازي بين الكلمة والأسرار. وهنا يعود المؤلف إلى تعليم الآباء القديم الذي نُسي في الغرب (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

الكتاب المقدس تصل إلى آذاننا الآن ليس كتعليم فقط وإنما كحياة وكوجود في الدهر الآتي. وهنا لا نجد توازي السر والكلمة لأن السر لا يكمّل الكلمة، وإنما في الافخارستيا تصبح كلمة الله متجسدة في اللحم والدم أي في جسد الكلمة (الابن) الذي قام من الأموات.

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثاني

الأهمية الروحية لكلمة أقنوم

في العصر الحديث نتكلم كثيراً عن «الشخصية» وعن الوجود بل لعل أهم ما يشغل بال الإنسان المعاصر هو «الهوية» التي تخص كل شخص في المجتمع. وفي حقيقة الأمر استطاعت العلوم الإنسانية في السنوات السابقة أن تنافس اللاهوت المسيحي وأحرزت نجاحاً ملحوظاً عندما عزلت هذه العلوم فكرة «الشخص» بكل ما تعنيه كلمة «شخص» - عزلتها عن اللاهوت، وحفظت العلوم الإنسانية هذه الفكرة أي الشخص في إطار ما قدمته من نظريات إنسانية حديثة جعلت الإنسان المعاصر يرى الشخص على أنه الفرد المستقل الذي له وجود خاص به وحده تربطه بالآخرين قواعد أخلاقية يمكن شرحها وفهمها بشكل فلسفي. ولم يلتفت أغلب المفكرين إلى حقيقة تاريخية ووجودية في نفس الوقت وهي أن فكرة الشخص لا يمكن فصلها بالمرة عن اللاهوت المسيحي بل هي نشأت أصلاً في اللاهوت المسيحي، وأن لاهوت الآباء

coptic-books.blogspot.com

طور هذه الفكرة اللاهوتية من خلال الوعي الآبائي بالكنيسة، أي أن فكرة الشخص ضاربة بجذورها في الاكلسيولوجي (علم الكنيسة)، لأن الشخص هو حقيقة وجودية وإنسانية حية وليست فكرة مجردة بلا أساس في الواقع. وإذا لم نحفظ هذه الحقيقة في ذاكرتنا فإننا نكون قد أخطأنا في فهم فكر الآباء الذي تأسس على ما تعنيه كلمة «شخص» من حقائق خاصة بحياة الإنسان كصورة لكيان الله. لذلك يلزمنا أن نتابع التطور التاريخي من خلال تطور الكلمات وتطور الوعي الذي يحول الكلمات الإنسانية ويغير معانيها لتناسب ما يعرفه الإنسان عن نفسه.

المرحلة الأولى من القناع إلى الشخص
الخلفية الفلسفية

ولدت أنطولوجيا (علم الوجود) الشخص في الفكر الإنساني اليوناني القديم، وهنا نرى محاولات العلماء المعاصرين الذين ظنوا أول الأمر أن الفكر اليوناني القديم هو فكر لا يهتم بالشخص أي أنه «لاشخصاني».

وينقسم التيار الفكري اليوناني القديم إلى نوعين :

الأفلاطوني – والأرسطاطالي (نسبة إلى أرسطو).

يعتقد علماء الأفلاطونية أنه بشكل عام اعتقد فلاسفة هذا التيار الفكري بأن كل كائن هو فرد له وجود خاص به

coptic-books.blogspot.com

ويمكن الحديث عن كل كائن بواسطة ما نتصوره من أفعال وصفات لهذا الكائن. هذا التصور هو نشاط فكري مجرد يجعلنا نشرح ونبرز سبب وجود كل فرد بما نعرفه عنه وهنا يصبح الفرد «شيئاً» وليس «شخصاً» أي أنه something وليس someone. وبالطبع إنه يوجد قدر من الصواب في هذا التحديد لكنه ليس الحقيقة الكاملة.

أما تيار مدرسة أرسطو فقد اعتمد على تصنيف الكائنات لدراستها على فكرة الجوهر (ousia) وهو أي الجوهر: الصفات الثابتة غير المتغيرة لكل الأشياء. فالإنسانية هي جوهر، أي صفات وقدرات وكل ما يميز الإنسانية. وإذا حددنا «الإنسانية» استطعنا أن نحدد بعد ذلك «الإنسان» ويصبح الإنسان هو الفرد الذي يشترك في جوهر الإنسانية. وبينما الإنسان يتغير ولا يستقر على حال واحد فإن الجوهر أي الإنسانية يبقى دائماً غير متغير. وفشل فلسفة أرسطو كامن في عدم وجود «الحياة الأبدية» ذلك البعد الضروري الذي يعطي البقاء. كما فشلت هذه المدرسة أيضاً في استيعاب الكيان الإنساني الروحي – الجسدي (pschosomatic) ككيان واحد، وفشلت أيضاً في شرح علاقة الإنسان كفرد بالجوهر، أي شرح ما هو شخصي وخاص بكل إنسان، وما هو عام ويضم كل الإنسانية. وبذلك يلزمنا أن نقول أن المدرسة الأفلاطونية جعلت الشخص فكرة مجردة (concept) بلا وجود حقيقي لأنها منذ البداية فصلت النفس عن الجسد وجعلت

coptic-books.blogspot.com

النفس أبدية دائمة أما الجسد فهو متغير وفان، ولذلك وجود الإنسان على الأرض أو في التاريخ هو وجود زائل وغير حقيقي لأن اتحاد النفس الأبدية بالجسد هو اتحاد ضعيف ولأن النفس سوف تترك هذا الجسد وتعود إلى الأرض لكي تتحد بجسد آخر وهذا ما عرف بتناسخ الأرواح[١] أو (reincarnation)، وهو المبدأ الذي جعل فكرة «الشخص» ككيان جسدي وروحي دائم غريبة على المدرسة الأفلاطونية.

أما مدرسة أرسطو فقد اعتقدت بأن انفصال النفس عن الجسد أي الموت يقضي على كل إنسان كفرد وبالتالي صار من المستحيل منطقياً أن تتأصل فكرة الشخص. فالإنسان كائن له وجود حقيقي كفرد طالما أنه موجود في الحياة ولكن بالموت ينتهي وجود الجسد وعندما ينتهي الجسد ينحل وجود الإنسان تماماً ويختفي كل فرد[٢] ولا يبقى من الشخص أي شيء خاص به.

---

(١) يقول أفلاطون في الحوار «طيماوس» أن كل النفوس خلقت متشابهة ولكن الاختلاف بين نفس وأخرى يحدث عند الاتحاد بالجسد (DF:41) ويعلق الأستاذ E.Rohde في كتابه النفس psyche على هذه الفكرة بأن الشخصية الإنسانية تتكون عند تجسد النفس ولكن إذا تذكرنا أن أفلاطون يعتقد بعدة تجسدات للنفس الواحدة في عدة أجساد بما فيها الحيوانات (راجع الجمهورية: 018A وطيماوس 42BC) فهذا يجعل النفس الإنسانية غير قادرة على أن تملك شخصية دائمة خاصة بها.

(٢) حسب اعتقاد أرسطو في كتابه: النفس De anima 2:4, 415A, 28-67 الفرد لا يبقى إلى الأبد فالموت يجعل الجسد مجرد شيء وما يبقى بعد الموت هو «النوع» الإنساني. ويبدو أن أرسطو اعتقد بقدرة العقل nous على البقاء بعد الموت Metaph 13:9-1070A وأيضاً De Anima 3:5-436.

coptic-books.blogspot.com

هذا العقم الفكري كامن في طبيعة الفلسفة اليونانية القديمة التي عجزت تماماً عن أن تتصور أن كل فرد له وجود دائم متميز خاص به مما جعل أنطولوجيا (وجود) الشخص غير ممكنة في إطار المدرستين الأفلاطونية والأرسطوطالية. وجانب آخر في غاية الأهمية هو أن الفكر اليوناني القديم رسخ تماماً على حقيقة فكرية سادت هذا الفكر وهي أن الوجود كله هو في الواقع وحدة كاملة رغم التعدد وأن كل الأشياء تستطيع أن تعود بوجودها إلى هذه الوحدة وأن تكتشف حقيقة وجودها بالعلاقة مع ذلك الوجود الواحد الذي يضم كل الأشياء. هنا يصبح أي اختلاف وتمايز هو «عارض» يجب إزالته تماماً لأن أي اختلاف أو تمايز هو خطأ في كيان الفرد يهدده بالزوال أو عدم البقاء.

العجز الفلسفي

هنا نرى أن الانطولوجيا أي الوجود هو وجود «واحدي» Monism أي خاضع لوجود واحد يجمع كل الأشياء معاً في وحدة، هو الذي قاد الفلسفة اليونانية إلى تصور «الكون» Cosmos على أنه وجود واحد كل الأشياء والكائنات تحيا فيه في انسجام وأن وجودها هو في مدى انسجامها مع هذا الكون. وحتى الله نفسه لا يستطيع أن يتحرر من هذا الوجود بل هو أيضاً في وحدة معه ولا يستطيع أن ينظر إلى «الكون» وجهاً لوجه ويدخل في حوار معه. فالله خاضع لضرورات وجوده في وحدة مع العالم، والعالم أو الكون خاضع هو أيضاً

coptic-books.blogspot.com

لنفس ضرورات وجوده. وتمر الفلسفة اليونانية بعدة مراحل فكرية أهمها فكرة خلق الكون عند أفلاطون وفق نظام إلهي وقوانين تحكم الكون أو من خلال سيطرة اللوغوس عند الرواقيين Stoics، أو الفيض الإلهي عند أفلوطين حيث تصدر أو تفيض الكائنات من الله... كل هذه الأفكار سبقت ظهور المسيحية بعدة قرون وجعلت الفكر اليوناني يتصور الكون على أنه وحدة وانسجام مملوء بكائنات تتحرك في فاعلية وجمال، كون إلهي جميل يفيض بالحيوية والحياة والجمال. لكن الفكر اليوناني عجز عن تصور أو مناقشة إمكانية أن يحدث شيئ غير متوقع في الكون أو أن يكون لدى الله حرية التعامل مع الأشياء أو أن يكون للإنسان نفسه حرية. فالحرية فكرة تبدو بعيدة عن الانسجام والوحدة، بل هي تهدد الكون. فكل ما يحدث في الكون يجب فهمه في إطار الانسجام والوحدة فإذا خرج أي كائن على هذا المبدأ صار بعيداً عن المنطق أو العقل Logos الذي يجمع كل الأشياء في انسجام ووحدة. ولم يكن ذلك قاصراً على الكون وحده بل كان يتضمن الإنسان أيضاً.

ما هو مكان ودور الإنسان في الكون

كان مكان الإنسان في الكون الذي تخضع فيه كل الأشياء بما فيها الإنسان للوحدة والتوافق والانسجام هو أيضاً أحد الأهداف الأساسية التي حاولت التراجيديا اليونانية القديمة إبرازها. والتراجيديا هي المأساة النابعة من مشكلة يبدو حلها

coptic-books.blogspot.com

عسيراً وهنا بشكل خاص وليس من ضرب المصادفة البحتة ولدت كلمة شخص prosopon[٣]. هذا لا يعني أن الكلمة «شخص» prosopon لم يكن لها وجود في اللغة اليونانية بل كانت موجودة وإنما الذي ابرز أهميتها هو المسرح. وتاريخياً وحسب ما هو ثابت فإن كلمة prosopon استخدمت عند أرسطو لكي تدل على الجزء الذي يقع أسفل الجبهة في رأس الإنسان[٤]. ولذلك السبب حاول علماء اللغة اليونانية مثل H. Stephanus أن يحدد معنى الكلمة prosopon على أساس علم التشريح القديم وقال أنها تعني المنطقة التي تضم الحواجب والعينين والأنف والفم[٥]. ولكن دراسة النصوص اليونانية نفسها لا تؤكد ذلك. أما ما هو جدير بالدراسة فهو كيف التصقت كلمة شخص prosopon بكلمة «قناع» أو prosopeion التي استخدمت في المسرح اليوناني. وتاريخياً كان كل ممثل يلبس «قناعاً» لكي تختفي شخصية الممثل الحقيقية وتظهر شخصية البطل الذي يريد الممثل أن يقوم بدوره. وهكذا يسجل لنا الكاتب اليوناني القديم لوسيان Lucian

---

(٣) يجب أن ننبه القارئ إلى أن الكلمة اليونانية prosopon دخلت اللغة العربية القديمة عن طريق اللغة السريانية. وكتبت باللفظ العربي «فار صوفا» أو فارصوف ونظراً لغرابتها اهملت تماماً بعد القرن الحادي عشر. ولذلك سنكتب الكلمة اليونانية كما تنطق باليونانية أي «بروسوبون» لكي لا نقع في غموض كلمة شخص السائدة في اللغة العربية الحديثة (المعرب).

(٤) انظر أرسطو History of animals I.VIII.

(5) Theaurus Graecae Linguae vol 4: col 2048.

coptic-books.blogspot.com

بأن المسرحية تحتاج إلى ثلاثة «أقنعة» لكي تكمل الكوميديا. فالقناع الأول هو قناع الممثل الذي يقوم بنقد البطل والهجوم عليه، والقناع الثاني هو قناع الضحية، والقناع الثالث هو قناع المستمع الذي يستمع ويشترك في الكوميديا بحضوره فقط(٦). وهكذا منذ عصر مبكر ليس في الأدب اليوناني فقط بل حتى عند المؤرخ اليهودي يوسيفوس – نرى أن كلمة شخص وقناع صارت كل منهما تعبر عن الأخرى كمرادف لها(٧). ومع أننا نستطيع إثارة عدة أسئلة إلا أن الجواب عليها صعب للغاية مثل: ما هي علاقة قناع الممثل بالشخص؟ هل كان القناع هو الذي يستدعي وجود الشخص الحقيقي الذي يقوم البطل بدوره؟ أو هل يوجد إدراك إنساني أعمق من مجرد إرتداء القناع يربط بين القناع والشخص(٨)؟.

ودور المسرح والتراجيديا بشكل خاص هو ضروري لفهم الجانب الإنساني قبل الجانب اللغوي. فالمأساة

---

(6) Stander, 6.

(7) Jewish war 4:156 and Theophrasetus character 4:3.

(٨) حسب دراسة العالم الألماني المعاصر S. Schlossmann القناع يعبر عن الشخص كما يقوم بدوره في المسرحية أي كما يظهر لنا كأحد أطراف العلاقة أو العلاقات التي نشاهدها فمن يقوم بدور بطل عسكري لابد وأن يلبس ملابس العسكرية ويقلد كل شيء في شخصية البطل حتى يمكن أن يجسد البطل، هذا التجسيد يقوم فيه الوجه بدور أساسي لأن المشاهدين يتعرفون على البطل من وجهه قبل أي شيء آخر. هذا ما جعل الوجه أو الشخص أو القناع تتداخل بالشكل الذي نراه في اللغة اليونانية القديمة. راجع persona und prosopon, 1900, p 37-38.

coptic-books.blogspot.com

التي يعبر عنها المسرح هي الصراع بين الحرية الإنسانية والضرورات التي تُفرْض على الحياة الإنسانية أي الوجود في عالم تحكمه القوانين الطبيعية التي لا يملك الإنسان أن يغير فيها شيئاً لأن التغيير معناه حسب الفكر اليوناني القديم فقدان الانسجام والتوافق وضياع الوجود الكوني كله. إذاً على المسرح نرى الإنسان وهو يصارع لكي يكون شخصاً ويناضل ضد هذه الضرورة المفروضة عليه والتي تستعبد حريته وتفرض عليه القيود الأخلاقية وغيرها. فالإنسان في التراجيديا يجد الفرصة للتعبير عن هذا الصراع الذي يجعل الكون يسقط على الإنسان بكل ثقله لكي يسحقه بدون رحمة. هنا يجد الإنسان أن «المصير» يجب أن يصور بشكل واضح وأن المسرحية لا تكتمل إلا إذا استطاع أن يجعل للمصير نفسه قناعاً ذو ألوان ظاهرة.

القناع كتعبير عن الشخصية

على المسرح ومن خلال التراجيديا كان الإنسان القديم لا يصارع الكون وحده بل الآلهة التي حددت له المصير النهائي دون أن تسأله[٩]. ومن خلال المسرحية تعلم الإنسان القديم

(٩) لازال هذا الاعتقاد سائداً في العصر الحديث حيث يقرأ الناس من كل بلاد العالم حظك ويسألون العارفين بالأبراج والفلك عن الأحداث الآتية التي تحددها الكواكب والنجوم. فالفكرة اليونانية القديمة لم تمت بالمرة.

coptic-books.blogspot.com

أن الصراع محكوم بمسألتين الأولى أنه لا يملك الهرب من المصير النهائي والثانية أن صراعه ضد الآلهة هو تمرد وخطية وأنه لا يملك أن يستمر في هذا الصراع إلى ما لا نهاية دون أن تعاقبه الآلهة. وهكذا أصبح الإنسان في ذلك الوضع المأساوي التراجيدي الذي عبر عنه أفلاطون في عبارة واضحة بليغة وهي أن «الكون لم يوجد من أجل الإنسان وإنما الإنسان موجود من أجل الكون». وأين نجد هذه الفكرة عند أفلاطون في كتاب «القوانين»[١٠]. هذا يتعارض بشكل واضح مع تعليم الكتاب المقدس والآباء حيث نرى أن الإنسان خلق بعد خلق الكون وأن الكون خلق من أجل الإنسان.

فإذا كانت «حرية الإنسان مقيدة» فمن الواضح أنه يوجد تناقض تام بين كلمة «حرية» وكلمة «قيد»، فالحرية المقيدة ليست حرية بالمرة. هنا يبدو المعنى المأساوي لكلمة شخص، لأن الشخص هنا ليس إلا مجرد قناع يقوم بدور مرسوم ومفروض عليه أي أن القناع بلا كيان حقيقي أو بلا وجود في الواقع. فالواقع محكوم ومقيد ولا معنى له إلا بالخضوع التام.

وتاريخياً أيضاً استخدمت اللغة اليونانية كلمة أخرى

---

(١٠) يقول أفلاطون ها أنت قد فشلت في إدراك أن الولادة ووجود أجيال متعاقبة من البشر في الكون إنما هو وجود الجزء (البشر) من أجل الكل. فالكل (الكون) لم يوجد من أجلك وإنما أنت من أجل الكل (الفصل العاشر: فقرة ٩٠٣).

coptic-books.blogspot.com

للدلالة على وجود الإنسان وهي كلمة Hypostasis[١١] هيبوستاسيس وتعني ما هو قائم وموجود في الإنسان وهنا نرى بداية العلاقة بين الكلمتين.

فالوجود الإنساني وكيانه أو شخصه أو Hypostasis الواقع تحت ضغط الكون والوجود يظهر في شكل قناع أو prosopon ولكن هذا القناع لا يمت لكيان الإنسان بصلة لأنه مفروض عليه من الكون ومن الآلهة ولا يملك الإنسان إلا أن يلبسه ويرتديه حتى يقوم بدوره الذي لا يملك التمرد عليه. فما هو المحتوى الحقيقي للقناع...؟ لا شيء. وما هو الوجود الإنساني الخاص بالإنسان والذي ينبع من كيان الإنسان نفسه ويجعله يقوم بدوره بحريته... هذا الوجود الإنساني هو صفر.

ولكن التراجيديا تفقد قيمتها ومعناها إذا انعدم الصراع ضد المصير المحتوم الذي تفرضه الآلهة، نعم ولذلك يكتشف الممثل والجمهور من خلال التمثيلية أنه توجد حرية ما في نقد هذا المصير وفي التعبير عن رفضه أو التمرد عليه واختبار قسوة التمرد وما يأتي به التمرد من عقاب. هنا يصبح لكلمة prosopon أي قناع وجود وكيان إنساني. وهنا بالذات تظهر أهمية كلمة Hypostasis هيبوستاسيس لأنها تعني الوجود الخاص بكل إنسان. هنا يكتشف الجمهور والممثل أنه يوجد

(١١) ترجمت إلى شخص ولكنها تعني الكيان أو الوجود الإنساني وسوف نقوم بتحليل تاريخ الكلمة واستعمالها عند الآباء في الصفحات التالية.

coptic-books.blogspot.com

شيء شخصي في القناع أي هوية البطل التي لا يريد الكون ولا القوانين لها أن تظهر وتنمو. وهذه الهوية تولد من خلال التمرد على المصير المأساوي وتجعل القناع ضرورياً، لأن القناع هو الذي يجعل الممثل يكتشف التمرد وعقوبته. فالقناع هو الذي أدى إلى ولادة فكرة الشخص أي الفرد الإنساني الذي يقوم بدوره في الحياة ويحاول أن يمارس حريته. وإذا كان عمر الشخص قصيراً لأنه بعد انتهاء المسرحية يعود الممثل ومعه الجمهور إلى المصير المحتوم الخاص بهم، لكن القناع أدى دوره. فقد خلق في الإنسان الشعور بضرورة أن يمارس وجوده الخاص به وأن يبحث عن دوره الشخصي وأن تكون له هوية تميزه. وبالتالي صار القناع والشخص متلازمان في إطار التراجيديا القديمة.

لكن كل ذلك يطرح علينا قضية إنسانية هامة وهي أن الفكر اليوناني القديم رأى أن الشخص = قناع، وأن القناع أو الشخص إنما هو دور يمثله الممثل، أي أنه دور يضاف إلى كيانه وحياته. هذه الإضافة تجعل الشخص بلا كيان أو بلا Hypostasis.

وهكذا ورثنا الكلمتين الأساسيتين prosopon قناع وشخص Hypostasis وجود وكيان... وأصبح على اللاهوت المسيحي إزاء كل هذا أن يشق طريقه لكي يجعل كلمة Hypostasis التي تعني جوهر وكيان وحقيقة وجود الكائن مرادفة لكلمة قناع أو شخص أو prosopon ولكن ذلك

coptic-books.blogspot.com

اقتضى مرور عدة قرون وصراعات لاهوتية هامة سوف ندرسها في حينها.

coptic-books.blogspot.com

دور القانون الروماني القديم في إبراز أهمية الشخص

ما هو تأثير القانون الروماني القديم في إبراز أهمية فكرة الشخص؟ لقد دار جدل طويل حول علاقة الكلمة اليونانية prosopon بالكلمة اللاتينية persona وهل تطورت الكلمة اللاتينية من اليونانية؟ ولكن إذا تركنا الجانب اللغوي جانباً ودرسنا الجانب الاجتماعي والقانوني وجدنا أنه منذ عصر شيشرون أصبحت كلمة persona مرادف للفرد[١٢] من حيث إنه مسئول عن علاقاته الاجتماعية، ولكن مثل الآداب اليونانية كانت الكلمة اللاتينية تعني القناع والدور الذي يقوم به الممثل على المسرح، ولكن القانون استخدم كلمة persona لكي يدعم الدور القانوني الذي يقوم به الفرد وما يحمله هذا الدور من مسئوليات اجتماعية. فالشخص هنا بالمعنى القانوني هو الفرد المسئول والمسئولية نابعة من علاقات قانونية تحدد دور الإرادة الإنسانية سواء بشكل فردي أو بشكل جماعي دون بحث الجانب الوجودي الانطولوجي للإنسان.

هنا يجب أن نشير إلى أن القانون الروماني قدم لنا فكرة هامة عن الإنسان. هذه الفكرة مبنية على النظام القانوني

(12) Cicero. De Amicit 1:4.

coptic-books.blogspot.com

وعلى العلاقات الاجتماعية فهي لا تهتم بالمرة بكيان الإنسان وإنما تهتم فقط بعلاقات الإنسان بغيره من البشر وبما يوقعه من عقود وبما يشترك فيه من شركات وما يملك من عقارات وما يخضع فيه للحكومة. فالإنسان كائن في الواقع ولكن هذه الكينونة لا تثير أي اهتمام إلا بما يمكن لهذا الإنسان أن يحققه من علاقات اجتماعية وتجارية وغيرها. هنا الشخصية الإنسانية تمارس في الحقيقة أكثر من دور وتدخل في أكثر من علاقة. فلكل فرد أكثر من persona تؤهله للقيام بكل الأدوار التي يريد القيام بها. إذاً نفهم من هذا أن الشخصية الإنسانية هي موضوع مهمل بلا قيمة بل هو مجرد إضافة توضح دور الإنسان الاجتماعي وعلاقاته فقلب وجوهر الكيان الإنساني هو العلاقات وليس الكيان الإنساني نفسه. وهنا أيضاً في هذا الإطار تبدو فكرة الحرية غريبة على الإطار القانوني، فالفرد لا يتوقع أن يقوم بعلاقة ما إلا على أساس ما يسمح به القانون أو لا يتعارض معه. وفي هذا الإطار أيضاً لا يمارس الفرد حريته، وإنما الذي يمارس الحرية هو الجماعة والحكومة فقط، وكلاهما يمارس الحرية في الإطار القانوني. فالفكر الروماني القانوني مثل الفكر اليوناني ينكر أي قيمة للحرية الإنسانية ويعتبر أن الشخص أو persona هو وظيفة اجتماعية تُؤَدى من أجل الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي.

coptic-books.blogspot.com

تقييم للفكرين اليوناني والروماني

الهوية الإنسانية في اللاهوت المسيحي هي أن يكون للإنسان أي لكل فرد كيان إنساني خاص به وأن كل إنسان مختلف ومتمايز عن غيره. هذا هو ما يجعل الفرد شخصاً لأنه يملك في ذاته صورة الله التي يسعى لكي يحققها وينمو صاعداً نحوها. أما في الفكرين اليوناني والروماني فإن الهوية الإنسانية تمنح من خلال العلاقات سواء كانت هذه المنحة من الحكومة أو من الجماعة أو من الوضع القانوني للفرد أي ما ينظمه القانون. وحتى إذا استطاع الإنسان القديم أن يتمرد ويثور على القانون وعلى الحكومة فإن الثورة لابد وأن تنتهي في النهاية بالبحث عن قانون آخر جديد يعطي هوية ويحدد معالم الشخصية الإنسانية في الإطار السياسي والقانوني الجديد الذي جاءت به الثورة حيث يتوقع الثائرون أن ينالوا هوية جديدة تؤكد صحة وشرعية ما قاموا به من تمرد على القانون القديم. هذه الهوية السياسية التي ينظمها القانون والتي تخضع لما يقوله القانون هي في الواقع الأساس الذي بنى عليه الفكر السياسي والاجتماعي المعاصر والذي لا يمكن فهمه إلا بالعودة إلى فكرة persona في القانون الروماني والمسرح اليوناني القديم. فما يعرف بالعقلية الغربية في عصرنا الحديث إنما هو في الواقع إلتئام الشخص prosopon في الفكر اليوناني مع الشخص persona في الفكر الروماني

coptic-books.blogspot.com

القديم. وهذا هو آخر ما وصل إليه الفكر القديم وهو ما يزال يعتبر أساس الفكر الغربي المعاصر. فالشخصية لا تزال قبل ظهور المسيحية وحتى بعدها – تُدرك على أنها علاقات اجتماعية وقانونية، وهذا هو أعظم ما يمكن أن يفتخر به الفكر البشري، فقد جعل لهذه العلاقات الجانب الشخصي، وهو الإضافة الهامة التي جاءت بها العصور الحديثة.

لكن إذا دققنا النظر في التطورين اليوناني والروماني وجدنا أن أكبر ثغرة هي أن الفكرة نفسها بلا مضمون وجودي، وأن وجود الإنسان في الكون لا يمكن شرحه أو فهمه بالمرة. وإنما آخر ما يمكن أن يقال هو أن الشخص في التراث اليوناني الروماني القديم وبالمعنى الذي ذكرناه هو علامة على طريق التطور والوعي بالكائن كشخص بالمعنى المسيحي. فإذا كان الإنسان قد خلق من أجل الكون لا الكون من أجل الإنسان، فإن هذه الخلفية الكونية Cosmological لا تشرح لنا شيئاً عن غاية خلق الإنسان، إذ أن الإنسان في هذه الخلفية هو مجرد جزء من الكل الكبير أي الكون، وبالتالي فإن غاية خلق الإنسان هي في الكون نفسه وفي توافق الإنسان مع الكون وليس في الإنسان ذاته. فالإنسان لا يسعى لكي يكتشف ذاته ويحققها لأن غاية وجوده كامنة فيه وإنما يسعى لإرضاء ما يمليه عليه الكون بما فيه من قوانين وبذلك لا تصبح الشخصية الإنسانية هي ما يميز الإنسان ككائن وإنما تصبح الشخصية الإنسانية هي خضوع الإنسان واستسلامه

coptic-books.blogspot.com

لما يحتمه وجوده في هذا الكون. وبالتالي يصبح محتوى الشخصية الإنسانية ليس وجود وكيان الإنسان نفسه بل ما يُملى عليه من مطالب وضرورات خارجية.

دور اللاهوت المسيحي

كيف تطور الفكر البشري والوعي بالصورة التي تمكنه من اعتبار الشخص هو بذاته الكيان والوجود الإنساني؟ كيف أصبحت الحرية هي الحياة في الكون بل صارت كلمة الكون مرادفة لكلمة حرية؟ كيف صارت الهوية الإنسانية هي محصلة الحرية وكيف صار وجود الإنسان هو ذاته شخص الإنسان؟

الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها إنما يقتضي منا أن نرى ما الذي قدمه اللاهوت المسيحي الذي جاء بمبدأين أساسيين:

(١) نظرة جذرية للكون والإنسان تحرر الكون والإنسان من الخضوع الحتمي للوجود ومن الضرورات الوجودية التي أثقلت كاهل الإنسان.

(٢) نظرة أنطولوجية (كيانية) للإنسان تجعل الشخص والكيان الإنساني هما وحدة واحدة لا تتجزأ. وحدة تجعل الهوية الإنسانية دائمة وباقية.

كان المطلب الأول سهلاً فقد جاءت المسيحية لتؤكد تعليم الكتاب المقدس. وتحقق المطلب الثاني بما قدمه أباء الكنيسة بسبب اهتمامهم بالأسئلة التي طرحتها الفلسفة والآداب

coptic-books.blogspot.com

اليونانية القديمة عن غاية ومعنى وجود الإنسان. وكان الآباء الذين كتبوا باليونانية هم قبل غيرهم المرشحين لهذا العمل. فقد أدرك هؤلاء الآباء أن الجمع بين كيان الإنسان وشخصيته في وحدة واحدة هو ما يجب الاقدام عليه وتحقيقه رغم أن الروح السائدة في عصر الآباء كانت الاكتفاء بما هو سائد وعدم خلق وتجديد التراث، ولكن الآباء جددوا الفكر وأعطوا للتاريخ الإنساني ذلك المضمون الجديد بأن الإنسان شخص وأنه يتحرك ليكون شخصاً بشكل مطلق، وهذا هو ما يزال يحرك الفكر البشري المعاصر رغم أن الفكر المعاصر قد ترك روح الآباء.

coptic-books.blogspot.com

دور عقيدة الثالوث في تطوير الوعي الإنساني

ولدت فكرة الكائن كشخص في اللاهوت المسيحي، وتطورت لفظياً على يد آباء الكنيسة الذين صارعوا من أجل تقديم الإيمان المسيحي بالله المثلث الأقانيم بشكل وجودي حقيقي مقبول. كان الإيمان بالثالوث يُسلم من جيل إلى جيل في أثناء إعداد الموعوظين لسر المعمودية. ولكن وجود الكنيسة في المجتمع الوثني القديم أدى إلى حوار واحتكاك فكري وبشكل خاص مع الفلسفة اليونانية التي ساعدت على تطوير وصقل الألفاظ التي استخدمت للتعبير عن الإيمان الرسولي القديم ولشرح هذا الإيمان القديم بشكل مقبول لدى الذين كانوا يدرسون الفلسفة اليونانية القديمة.

ما معنى أن الله هو الآب والابن والروح القدس وأنه في نفس الوقت إله واحد؟ والجدل مع الهرطقات القديمة التي أنكرت الثالوث أو وحدانية الله لا يفيدنا في هذا المجال وإنما ما هو ضروري الآن هو العلامات التاريخية التي وضعها الآباء في حياة البشرية، وتحديث وتطوير الفكر اليوناني نفسه وبشكل خاص في مجال الفلسفة. فقد جاء الآباء بثورة فكرية ظاهرة بوضوح لمن يدرس الفلسفة اليونانية لأنهم أول من قال في العالم القديم بأسره بأن الوجود هو الشخص أو باللغة اليونانية Hypostasis هو prospon. فكيف حدثت هذه الثورة الفكرية غير المتوقعة؟ وما هي نتائج هذا التطور وآثاره على

coptic-books.blogspot.com

فكرة الشخص؟ هذه هي الأسئلة الأساسية التي سوف نهتم بها هنا.

تاريخياً ولغوياً لم تستخدم كلمة Hypostasis (هيباستاسيس) في الفكر اليوناني القديم في الحديث عن الإنسان كشخص. وكما رأينا فإن كلمة «شخص» عند قدامى اليونان كانت تعني علاقات ولا تعني بالمرة كيان وجوهر ووجود الإنسان. ومن ناحية أخرى كانت كلمة Hypostasis وهي تعني ما هو كائن فعلاً في الواقع تستخدم للتعبير عن جوهر الأشياء وبذلك كانت المرادف لكلمة جوهر ousia. وجاء الآباء واستخدموا كلمة كائن أو كيان Hypostasis لتعني الوجود والجوهر ousia وكان هذا تقدماً محسوساً نراه في رسالة القديس أثناسيوس الرسولي إلى أساقفة مصر وليبيا حيث يقول «Hypostasis ما هو كائن هو بذاته الجوهر ousia وليس لكلمة كائن Hypostasis أي معنى آخر غير الوجود أو الكينونة. فالكينونة والجوهر بمعنى واحد أي ما هو موجود Hyparxis» (كتابات أثناسيوس مجلد ٢٦ في مجموعة الآباء اليونانية عامود ١٠٣٦). وقد نسأل أين حدث التقدم، والإجابة هي أن هذا التقدم تم في محاولة أثناسيوس الرد على البدعة الأريوسية. كان تعليم أريوس الذي رفضته الكنيسة الجامعة يقوم على دعامتين كل منهما راسخة تماماً في الفكر الوثني اليوناني.

الدعامة الأولى أن الله له جوهر فائق عال بعيد جداً تفصله هوة سحيقة عن الكون وأنه لذلك خلق عدة كائنات متوسطة

coptic-books.blogspot.com

لكي تملأ الهوة بينه وبين الكون. هذه الكائنات هي التي خلقت الكون ومن ضمن هذه الكائنات يسوع المسيح الابن المتجسد.

والدعامة الثانية هي أن جوهر الله لا تربطه بالعمل الذي يقوم به أية صلة من أي نوع. فالله له جوهر خاص به وما يعمله الله أي العمل والقوة الإلهية نفسها ليست هي جوهر الله. هنا نرى الفصل القديم بين الممثل والقناع فالقناع ليس هو الممثل وإنما هو عمل أو دور يؤديه الممثل على المسرح وبعد أن يخلع الممثل هذا القناع يعود الممثل إلى حياته ووجوده الخاص به وينتهى الدور نفسه.

وكلتا الدعامتان بلغة اللاهوت تعني فصل جوهر الله عن الإعلان الإلهي لاسيما عمل الخلاص الذي قام به الله في ابنه الوحيد وبالروح القدس. ولذلك جاء الآباء لكي يكشفوا عن عودة الأريوسية إلى التراث الوثني وأن الأريوسية ليست إلا الاستمرار في الوجود المأسوي القديم الذي تفصل فيه المأساة بين الكائن وما يقوم به من أعمال.. ولكي يغلق الآباء هذا الباب تماماً قالوا ما ذكره أثناسيوس في النص السابق وهو أن الوجود والكينونة والجوهر والشخص هي كلمات تعني ما هو كائن فعلاً في الواقع. وعلى هذا الأساس بالذات جاءت رسالة مجمع الاسكندرية في ٣٦٢ ميلادية لتقول بكل دقة أن مجمع نيقية المسكوني الأول الذي عقد في ٣٢٥ قد قطع من شركة الكنيسة كل الذين لا يعترفون بأن الابن له كيان Hypostasis

coptic-books.blogspot.com

(أقنوم) غير أقنوم الآب. هنا ولد التعبير الدقيق ثلاثة هيبوستاسات Hypostasis (ثلاثة أقانيم) أي الآب والابن والروح القدس. وطالما أن كلمة كائن تعني جوهر فإنه يصبح من الواضح أن كينونة كل أقنوم من أقانيم الثالوث هي نفسها جوهر الله. كانت هذه الحجة كافية ولكن الأريوسية لم تتوقف عن الهجوم ولذلك جاء أباء كبادوكية باسيليوس وغريغوريوس النزينزي وغريغوريوس النيسي برد آخر سوف نشرحه في حينه. لكن هذا الرد ولد أثناء الصراع ضد ما جاءت به الأريوسية عن الروح القدس أي قبل نهاية القرن الرابع وقبل وبعد انعقاد المجمع المسكوني الثاني سنة ٣٨١.

فإذا كان الكائن لا يختلف بالمرة عن جوهره وما يقوم به الكائن إنما هو نابع من حياته ومن جوهره انعدم الخلاف والفرق بين الآب والابن لأن كلاهما جوهر واحد. كان هذا كافياً للقضاء على الأريوسية ولكن تطور رد الآباء لم يتوقف عند هذه النقطة الهامة.

تطور استخدام كلمتي الأقنوم والجوهر

كما رأينا سابقاً طور الآباء الفكر اليوناني القديم وكانت النقلة الأولى هي اعتبار أن كلمة جوهر مرادفة لكلمة كائن وأن الكينونة والجوهر هما بمعنى واحد وعدم قدرة الفكر اليوناني القديم على قبول هذه الحقيقة قد سبق وشرحناه ولكن يكفي هنا أن نشير إلى أن الفوضى الفكرية التي نراها

coptic-books.blogspot.com

في كتابات بعض المسيحيين في القرون الأولى صادرة عن عدم استخدام كلمة كائن كمرادف لكلمة جوهر أي أنهم احتفظوا بالتفرقة اليونانية القديمة، مما خلق الكثير من المشاكل العقائدية عندما حاول هؤلاء الكتاب المسيحيين شرح عقيدة الثالوث وظلت هذه المشاكل قائمة حتى القرن الرابع. وعلى سبيل المثال كان العلامة ترتليان هو أول من استخدم كلمة persona للتعبير عن الثالوث وهو صاحب العبارة المشهورة una substantia, tres personae جوهر واحد وثلاثة أقانيم(١٣). وفي هذه المرحلة بالذات كان الشرق متحفظاً ولم يقبل استخدام كلمة persona لأنها كانت تفتقر إلى نقل الإحساس والفكر إلى حقيقة كيان ووجود الأقنوم(١٤). وظل الشك في جدوى استخدام كلمة persona لافتقارها لحقيقة وجود الكائن حتى استخدم العلامة أورجينوس كلمة كائن Hypostasis أي

(١٣) راجع مقالة ترتليان ضد براكسيان ٢١١ في مجموعة الآباء الذين كتبوا باللاتينية مجلد ٢ عامود ١٦٧٠.

(١٤) استخدم الهراطقة في القرون الثلاثة الأولى كلمة persona للتعبير ليس عن الأقنوم ولكن عن ظهور وإعلان إلهي لا يختلف عن فكرة القناع في المسرح اليوناني ولعل أشهر هؤلاء الهراطقة هو سابليوس الذي اعتبر أن الله ظهر بشكل آب في العهد القديم وبشكل ابن في العهد الجديد وبشكل روح قدس في العنصرة ولذلك كل ظهور هو قناع أو persona ولكن ترتليان وغيره من آباء الكنيسة لم يستخدموا كلمة persona بالمعنى الذي استخدمه سابليوس بل بالمعنى الصحيح ولكن ظلت كلمة persona غير الدقيقة تشيع فكر سابليوس. وفي الشرق ظلت كلمة prosopon تشيع نفس تعليم سابليوس حتى تحفظ الآباء على استخدام كلمة prosopon ولعل القارئ يلاحظ أن القديس أثناسيوس لم يستخدم هذه الكلمة بالمرة في كلامه عن الثالوث وعنه نقل آباء كبادوكية.

coptic-books.blogspot.com

أقنوم، وكلمة أقنوم هي التي شاعت عندنا في زمن الكتابة باللغة العربية[١٥].

وكان القديس باسيليوس هو المسئول عن هذا التطور. ولكن قبل أن نسجل ما قاله باسيليوس يمكننا أن نتذكر ما سبق وشرحناه من قبل وهو أن القديس أثناسيوس كان هو في الواقع أول من قاوم الأريوسية وتصدى لها معتبراً أن كلمة كائن أو كيان Hypostasis لا تختلف عن كلمة جوهر ousia وبذلك ثبت الاعتقاد بوحدة جوهر الآب والابن والروح القدس لكن كان من الضروري أن يتم التمييز بين الآب والابن والروح القدس حتى لا تقع الكنيسة في هرطقة سابليوس وإلا ما جدوى القضاء على الأريوسية للوقوع في هرطقة سابليوس. هنا تمت النقلة الأخيرة على يد آباء كبادوكية عندما اعتبروا أن الأقنوم Hypostasis متمايز عن الجوهر ousia وهنا نسجل عبارة القديس باسيليوس المشهورة في رسالته إلى أمفلوخيوس «الجوهر هو الوجود الإلهي العام لكل أقانيم الثالوث أما الأقنوم Hypostasis فهو الوجود والكينونة الذي يميز كل أقنوم من أقانيم الثالوث في الجوهر الإلهي» وعاد القديس باسيليوس في رسالته رقم ٢٣٦ فقرة ٦ يقول عن تطور اللغة اللاهوتية ما يلي «الذين يقولون أن الجوهر ousia هو ذاته الكائن Hypostasis عليهم الاعتراف

(١٥) المعرب

coptic-books.blogspot.com

بوجود ثلاثة أقانيم أو أشخاص prosopa متمايزة لأنهم إذا رفضوا الاعتراف بثلاثة أقانيم Hypostasis فإنهم يكونوا قد فشلوا في تجنب شر سابليوس».

إذاً يمكن استخدام كلمة prosopon مع تأكيد التمايز ووحدة الجوهر مع مراعاة أن كلمة Hypostasis صارت أكثر استعمالاً وأكثر دقة من كلمة prosopon لكن رغم ذلك الوضوح كانت مشكلة الفلسفة اليونانية القديمة لازالت قائمة حتى بعد تفضيل كلمة كائن أو أقنوم Hypostasis على كلمة prosopon فقد كانت الأفلاطونية المحدثة تستخدم كلمة Hypostasis للتعبير عن وحدة الله والكون وهي الوحدة القائمة على وصول الكون من خلال الاتحاد بالله إلى الخير التام. وكان من الممكن أيضاً إذا عاد الفكر المسيحي إلى عدم التفرقة بين الكائن والجوهر أي Hypostasis و ousia إلى الوقوع في الشرك أي الإيمان بثلاثة آلهة. فما هو الحل إذا كانت الكنيسة تريد مقاومة الأريوسية ولا تقع في بدعة سابليوس وتريد الإيمان بالثالوث دون أن ينفي الثالوث عقيدة التوحيد المعلنة في الكتاب المقدس؟ وكان من الحتمي على الآباء وقد خاضوا هذا النضال الفكري أن يظل تقدمهم إلى الأمام دائماً بالاحتفاظ دائماً بالحقيقة الأساسية وهي أن الكائن = الشخص = الأقنوم وأن تعدد الألفاظ الآتية من المصادر الفلسفية والمسرح لا يجب أن يزعزع الاعتقاد المسيحي السليم.

coptic-books.blogspot.com

الكائن هو الشخص

مرت المسيرة التاريخية للفكر المسيحي – حسب اعتقادي:

أولاً بالكاتب اليوناني الغربي القديس هيبوليتوس الذي كان أول من كتب باليونانية في روما الناطقة باللاتينية. ومثل العلامة ترتليان استخدم القديس هيبوليتوس كلمة Prosopon لشرح عقيدة الثالوث. هنا سوف نخصص الكلام على مرحلة تطور الفكر المسيحي وكيف ولماذا خصص كلمة كائن Hypostasis وميزها عن كلمة جوهر. وكل الدراسات اللغوية التي نشرت في السنوات الأخيرة أكدت أن آباء كبادوكية لم يكونوا فلاسفة بل كانوا لاهوتيين وإن تطور استخدام المصطلحات لا يشرح بالمرة النقلة الأساسية والتاريخية وهي كيف صار الكائن هو الشخص والشخص هو الكائن، هذه الثورة الفكرية لم تحظَ بالاهتمام الحقيقي لدى علماء تاريخ الفلسفة اليونانية من المعاصرين ولا حتى من القدامى وعندما نقول أنها ثورة فكرية فنحن نضع أمامنا حقيقتين أساسيتين كل منهما متأصلة في تاريخ الفلسفة اليونانية القديمة.

١- لم تكن الفلسفة اليونانية قادرة على تصور الشخص فجاء اللاهوت المسيحي ليقول إن الشخص هو الكائن وإن الشخصية لا تضاف إلى الكينونة بل هي الكينونة نفسها وهي الوجود الحقيقي للكائن.

coptic-books.blogspot.com

٢- الهوية لا تدرس بالعودة إلى الكون ولا بالعودة إلى الكينونة والوجود وإنما الهوية تعرف وتدرس بدراسة الشخص، فالشخص هو الذي يُقيم الكيان وهو الذي يحققه.

الثورة كانت من أجل الإنسان الذي تصوره الفلاسفة كياناً يحتاج إلى قناع أو إلى شخصية لكي يمارس حياته فصارت الشخصية هي الكيان وهي الكائن وهي التي تكوّن وتحقق ذاتها. وإنعكس هذا التطور على كل شيء وبشكل خاص على علاقة الله بالإنسان، فالله شخص وهذه الحقيقة لا يمكن فصلها عن جوهر الله. وقد إختمر هذا بواسطة خميرة كانت تعمل في بطء شديد في لاهوت الآباء على مستويين:

المستوى الأول هو الخاص بعقيدة الخلق أي خلق الكون. فحسب الإعلان الإلهي في الكتاب المقدس والذي أدركه الآباء بشكل تام، الكون ليس واجب الوجود ولا هو ضروري بالمرة فوجود الكون منحة وهبة من الخالق بعكس فلاسفة اليونان القدامى الذين تصوروا أن الكون واجب الوجود وأن وجوده ضرورة. أما تعليم اللاهوت المسيحي فهو أن الكون مخلوق (من العدم) Ex Nihilo أي أن الكون مخلوق بواسطة خالق لا ينتمي إلى الكون ولا هو واحد مع الكون بل هو خارج الكون أي الله. هنا يجب أن نقول أن الحلقة التي تحيط بالله وبالكون وتجعل كلاهما جزءً من الآخر قد كسرها آباء الكنيسة، بل ما هو أهم من ذلك هو أن الكون خلق بواسطة إله حر التصرف، شاء فخلق. فخلق الكون هو أحد علامات

coptic-books.blogspot.com

الحرية الإلهية. كانت هذه هي الخميرة الأولى التي جعلت بداية الخليقة وبداية الوجود صادرة عن الحرية الإلهية وليس عن ضرورة الوجود والحتمية.

المستوى الثاني أو الخميرة الثانية التي قادت إلى تقييم وإصلاح مسار الفكر اليوناني، كان الاعتقاد المسيحي الخاص بكيان الله ووجوده. كانت النقلة الأساسية هي اعتبار الله كشخص وإن الله له كيان شخصي وليس فكرة ومحتوى كما أنه ليس تمثالاً أو صنماً... والصراع ضد الهرطقات لاسيما صراع القديس باسيليوس الكبير نجتزئ منه نقطة واحدة خاصة بموضوعنا لأن ما كتب في السنوات الماضية لم يهتم بدراسة هذه النقطة.

كما هو معروف كانت الصياغة الأساسية للأرثوذكسية الخاصة بالثالوث هي: جوهر واحد وثلاثة أقانيم Mia ousia, tria proswpa وهنا يبدو للوهلة الأولى أن وحدانية الله وكيانه هو في الجوهر الواحد. وهذا في الواقع ليس التعليم المسيحي بل هو عودة إلى الانطولوجيا اليونانية القديمة أي الفكر الفلسفي الذي يتكلم عن الله على النحو التالي:

يبدأ الحديث أولاً عن الله وبعد ذلك يتدرج إلى الحديث عن جوهره وكيانه. هذا في الواقع ما فعله الفلاسفة اليونانيون قبل المسيحية. وعلى هذا المنهج سار لاهوتيون مسيحيون، فهم يتحدثون أولاً عن الله وصفاته وقدراته وبعد

coptic-books.blogspot.com

ذلك عن الثالوث. والقضية كما تبدو واضحة هي: الوجود وبعد ذلك الأقانيم أي الوجود وبعد ذلك الشخص. هذا المنهج السائد في اللاهوت الغربي يظهر بوضوح في كتب اللاهوت الشرقي بكل أسف وهو ابتعاد عن منهج الآباء حيث نرى القسم الأول في كتب اللاهوت هو الله الواحد وجوده وطبيعته ثم القسم الأخير (الثالوث)(١٥).

والخطأ الظاهر بوضوح هو أن هذا المنهج لا يدرس كيان الله وجوهره كما هو في الأقانيم بل كما هو في ذات أو جوهر. فالله كائن أولاً وبعد ذلك يمكن فهمه أو تأمله في أقانيم الثالوث. وهكذا ساد الاعتقاد في كتب اللاهوت الغربي بأن وحدانية الله هي وحدة جوهره أي أن كيان الله الواحد إنما هو قائم على كونه واحداً. وبذلك صار التوحيد هو الوجود والكيان الإلهي.

لكن هذا التطور الفلسفي واللاهوتي الغربي هو ابتعاد عن لاهوت الآباء وعن لاهوت الثالوث. فعند الآباء في الشرق لاسيما القديس باسيليوس الله واحد وذلك لأن فيه (علة) أو (سبب) واحد وهذا ليس هو الجوهر فالجوهر فكرة غامضة وإنما وحدانية الله مؤسسة على أقنوم الآب وشخصه.

---

(١٥) شرح العالم الكاثوليكي K. Rahner هذا التطور في اللاهوت مع بداية العصر الوسيط في الغرب في كتاب صغير وهام بعنوان الثالوث The trinity صدر في عام ١٩٧٠.

coptic-books.blogspot.com

فالله واحد ليس لأنه جوهر واحد وإنما لأنه الآب الواحد وهو العلة أو السبب في ولادة الابن وانبثاق الروح القدس[١٦]، وحسب لاهوت الثالوث عند الآباء، الآب هو مبدأ وعلة وسبب واصل كيان الابن والروح وليس الجوهر[١٧]. وبالتالي إذا قلنا أن الله كائن، فهذه الكينونة لا تعني الوجود غير المتأقنم أي الوجود الخاضع لضرورة الوجود بل الوجود الحر لأنه وجود شخص. وإذا دققنا النظر في هذا رأينا أن الله هو الآب وليس الجوهر وأنه يعلن عن حقيقة ذاته بشكل شخصي ويمارس حرية كيانه الإلهي كآب. فالآب بسبب محبته كآب يلد أزلياً الابن ومنه ينبثق الروح القدس. وهذا هو كمال المحبة والحرية.

وعندما نقول أن الله موجود فإننا نعني أن علة وجوده هو الآب فهو الذي منه يولد الابن وينبثق الروح القدس. فالله شخص، ومن أقنوم الآب يجعل جوهره الواحد هو جوهر الله. هذه نقطة خطيرة وذات دلالة كبرى، لأننا هنا نكتشف إنجاز القديس باسيليوس بشكل خاص. وإذا شئنا استخدام تشبيه

---

(١٦) هنا نرى بكل وضوح أن انبثاق الروح القدس من الآب والابن الذي شرحه أوغسطينوس ودافع عنه توما الإكويني قد رفض في الشرق لأنه يجعل المبدأ الأساسي الخاص بكيان الله هو جوهر اللاهوت وليس الآب وهذا عند الشرقيين يمثل نقطة العودة إلى الفلسفة اليونانية القديمة.

(١٧) وفي هذا الإطار أيضاً (الواحد مع الآب في الجوهر) حسب تعليم الآباء تعني أن الابن له ذات صفات وحياة الآب ولا تعني أن جوهر الابن مماثل لجوهر الآب.

coptic-books.blogspot.com

من الحياة الإنسانية لشرح ما أنجزه الآباء نقول أن جوهر الله لا يظهر كجوهر غامض مثل كيان عريان أي بلا شخص وبلا أقنوم أو بلا كيان خاص يميز وجوده[١٨] وقد شرح القديس باسيليوس هذه الحقيقة في رسالته رقم ٣٦ والقديس غريغوريوس النيسي ضد اتوميوس الكتاب الأول. وخلاصة ما قاله الآباء أن الجوهر العريان Naked لا يمكن أن يخص الله. وإنما الجوهر المتأقنم في الآب أو الجوهر الذي هو أقنوم الآب هو التعليم المسيحي الدقيق. لكن لا يجب أن تعبر هذه الكلمات بسهولة فالمقصود هنا هو أن الآب هو علة الوجود الإلهي، فالجوهر الإلهي هو أبوة الآب، وكيان الله ليس موجوداً وبعد ذلك صار هو الآب، وإنما العكس فهو الآب الأقنوم الذي بمحبته أعطى الكيان للابن والروح القدس. فالله ليس موجوداً كجوهر وإنما هو موجود وكائن كآب والآب طبعاً هو شخص أو أقنوم وليس صفة خاصة بالجوهر.

وهكذا خارج الثالوث إذا جاز هذا التعبير لا وجود لله ولا وجود لجوهر الله وإنما في الثالوث أي في الآب والابن والروح القدس. فالوجود الأقنومي أو الشخصي لله الآب هو ما يجعل الله إلهاً، والوجود الأقنومي للآب هو مصدر وعلة الوجود

---

(١٨) من الصعب نقل بعض كلمات الآباء حتى إلى اللغة الإنجليزية فقد استخدم الآباء الكلمة اليونانية Hypachews وتعني mode of existence ومن الصعب ترجمة هذا إلى العربية ولعل أفضل ما يمكن أن يقال وجود خاص أو كيان مميز أو أسلوب وجود (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

الأقنومي للابن والروح. إذاً الله كائن لأنه ثالوث وكيان الله هو أشخاص أو أقانيم الثالوث، وجوهر الله هو الآب. هنا وصل الوعي الإنساني إلى قمة تطوره لأنه أدرك أن وجود الله هو وجود متأقنم وليس وجوداً عارياً مثل وجود الكائنات الأخرى التي لا شخصية لها.

فما هو التقدم الفلسفي للآباء وماذا قدم الآباء للانطولوجيا (لعلم الوجود)؟ الجواب في إيجاز شديد هو لا وجود لجوهر أو طبيعة بلا وجود شخص أو أقنوم أو كيان مميز. وكذلك لا يوجد الشخص أو الأقنوم بلا جوهر أو طبيعة ولكن ما يجعل أي كائن كائناً فعلاً ليس الطبيعة وإنما الشخص. فالوجود لا يفهم كوجود ولا يقتفي أثره في الوجود وإنما الوجود عائد إلى الشخص وليس الشخص إلى الوجود.

الثالوث يعلن جوهر الله

ما هو أساسي في لاهوت الثالوث هو أن الله موجود لأنه ثالوث ولأن سبب وجوده وعلة كيانه هو الآب وليس العكس الذي يقول إن الجوهر موجود وإن منه جاء الآب. هذا الاتجاه الخاص بالآباء يبعد عقيدة الثالوث عن الفكر النظري ويقود الفكر البشري إلى اكتشاف الحياة الإلهية والوجود الإلهي على النحو الذي نراه عند الآباء والذي يمكن أن نلخصه على النحو التالي:

coptic-books.blogspot.com

أولاً: ما هو مضمون الحرية؟ لقد قدمت لنا الحضارة الغربية فكرة محددة للحرية على أنها اختيار حر بين أمرين أو أكثر. ولكن الاختيار بين الامكانيات المتاحة سواء أكان أمران أو أكثر يجعل الحرية مقيدة بما يعرض عليها من إمكانيات وكل إمكانية على حدة هي في الواقع محددة بضرورة وحتمية معينة. فالإنسان إذا إختار الموت صار موته ضرورياً وحتمياً لا يمكن الهرب أو التخلص من نتائجه، فالاختيار هنا هو في الواقع خضوع للحتمية. وعلى حد قول الفلاسفة المعاصرين، بعد أن يوجد الإنسان في الكون ما حتمية السؤال هل هو حر. هل كان الإنسان حراً عندما وُجِدَ. وقد عبر الكاتب الروسي ديوستوفسكي في قصته (المصروع) The possessed على لسان بطل القصة Kirilov (كل إنسان يشتاق للحرية التامة عليه أن يقضي على حياته ويموت. فهذا هو الحد الأخير للحرية ولا يوجد عائق آخر بعد الموت. وكل من يتجاسر وينتحر يصبح مثل الله وعندما ينتحر كل إنسان ينتهي وجود الله نفسه ويصبح كل شيء في حكم العدم). هذه الكلمات تكشف عن عمق مأساة الإنسان فهو لكي يتسامى ويعلو على وجوده يحتاج لأن يقهر ضرورة وحتمية الوجود دون أن يموت، وأن يختار ليس الوجود بل أن يكون شخصاً يحقق وجوده بكونه شخصاً.

وعندما يحقق الشخص ذاته من خلال نموه كشخص يكون قد مارس حرية الوجود التي تظل في الحقيقة في دائرة مخلوقية

coptic-books.blogspot.com

Createdness الإنسان التي لا تسمح له بأن يهرب من حتمية الوجود. هنا نرى الفارق الأساسي بين الفلسفة واللاهوت. فالإنسان في الفلسفة محكوم بالبقاء تحت حكم وحتمية الوجود، واللاهوت يرى أن الإنسان قادر على أن يرتفع فوق حتميات الوجود لأنه لا يصارع لكي يبقى بل يصارع لكي يصبح شخصاً. والوعي بأن الشخص هو قمة الكينونة والوجود يجعل دور الحرية هو النمو نحو صورة الله التي منحها الله للإنسان والتي جعلت الإنسان كشخص هو أعظم منحة. أما إذا لم يكن الله شخصاً عندئذ يصير وجود الإنسان كشخص هو حلم يقظة لا أساس له في الواقع.

ثانياً: لكن ما هي حقيقة تحقيق الذات وكيف يعبر عنها اللاهوت؟ كلمات بطل ريوستوفسكي تجعل حرية الشخص طريقاً للموت، فلكي ينال الإنسان التحرر من ضرورات وجوده وحتمية البقاء، عليه أن ينتحر. وهنا يصبح الإنسان هو الذي يسلب وجوده ويقضي عليه. وحتى القانون يقف لكي يحد من الحرية فالقانون يحمي النظام ويقضي على الفوضى وهذا يعني أن تحقيق الحرية إنما يصطدم بمصالح الآخرين. فالآخر يصبح عائقاً أو على حد قول سارتر فليسوف الوجودية، «الآخر هو الجحيم»، أي ما يهدد البقاء والحرية. فما هو موقف اللاهوت في محتواه الشرقي الذي علّم به الآباء وكيف يجيب اللاهوت على هذا السؤال الخاص بالحرية؟ كيف يمارس الله حريته؟ الإنسان مخلوق وخاضع بالضرورة لما

coptic-books.blogspot.com

يمليه عليه وجوده، ولكن الله بعكس الإنسان هو لا يخضع لضرورات الوجود لأنه غير مخلوق؟ فإذا كانت حرية الله نابعة منه هو ومن وجوده غير المخلوق فمن الواضح أن الله كشخص يمارس حريته بشكل لا يمكن أن يتشبه به الإنسان أو حتى يقلده وبالتالي يتعذر على الإنسان أن يصبح شخصاً مثل الله. ولكن إذا تذكرنا أن حرية الله ليست مشكلة مفروضة على الله بل هي ممارسة شخصية وأن وجوده المتأقنم يعني أن كل ما فيه إنما هو موجود وكائن فيه كشخص، صار وجود الله المتأقنم هو مصدر حريته الشخصية فليس لدى الله طبيعة أو جوهر يحاول الله أن يفهمها وأن يدركها. فحرية الله هي حرية شخصيته وهذا يعني أن الرجاء الحقيقي للإنسان هو أن لا يناقش حريته من خلال موضوع الوجود بل أن يناقش حريته من خلال الممارسة الشخصية لأن هذا هو الذي يطور وجود الإنسان ويجعله (صورة الله) رغم الفارق الأساسي بينه وبين الله.

يمارس الله حريته لأنه شخص ويمكننا أن نتصور من أجل الفهم الصحيح أن الله يعلو على الوجود من أجل الوجود، وبذلك يتحرر من حتمية الوجود ويصبح ليس فقط موجوداً بل بالأحرى هو الآب. هذا التصور رغم ما فيه من قصور، يؤهلنا لكي نفهم كيف أجابت عقيدة الثالوث على عدة أسئلة هامة وخطيرة عن الحياة الإلهية فالله يعلو على كل ضرورات الوجود والبقاء من أجل الوجود والبقاء، ولذلك هو

coptic-books.blogspot.com

كائن كآب بولادة الابن وبانبثاق الروح القدس. هو يعلو على الوجود بالمعنى المعروف عند الآباء أي أنه يمارس ecstasy أي الانطلاق الروحي، والكلمة عند الآباء مأخوذة من كلمة EKSTASIS[١٩] أي يبقى خارج ذاته أو يحيا فوق درجة الوجود العادي عند ديونيسوس الأريوباغي. وقد اعتبر الآباء أن هذه إحدى علامات الوجود. وعندما يولد الابن من الآب فإن الله الآب يعطي ذاته لإبنه إلى حد الانطلاق والتعالي على كل ما هو موجود أو جوهر، فالمحبة عطاء والعطاء في الله لا يقف عند حدود وهذا العطاء الكياني يجعل الوجود الإلهي شركة، فميلاد الابن يقيم هذه الشركة وبالتالي يصبح الله قادراً على أن يمارس حريته الذاتية بميلاد الابن وبمشاركة الابن له دون أن يفقد ذاته بل بالتسامي والانطلاق إلى ما هو أعظم من مجرد البقاء والوجود أي بعطاء المحبة. وهنا يصبح الوجود شركة والشركة ليست في الجوهر بالمعنى الفلسفي القديم وإنما شركة في الشخص شركة في أقنوم الآب. وهنا نرى أن الطبيعة الإلهية المتأقنمة في الآب هي طبيعة تعلو على ذاتها وتعطى، ليس لأنها طبيعة إلهية بالمعنى الفلسفي السائد، بل لأن الآب كشخص يعطى وكآب هو علة الشركة وسبب وجودها.

---

(١٩) هي أعلا من كلمة (الدهش) التي تعبر عن حالة انطلاق روحي لتأمل الله أي (التاوريا) وقد احتفظت بالكلمة اليونانية الإنجليزية لأنها تترجم أحياناً بالغيبوبة وهذا غير وارد بالمرة عند الآباء بل عند النساك غير المسيحيين. إنها حالة الوجود خارج الجسد المحدود عند الرسول بولس وكثيرين من الآباء (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

المحبة كتعبير عن الحرية الإلهية

إذا قلنا إن الآب يعطي كيانه للابن ومن الآب يولد الابن وينبثق الروح بات من الواضح أن ممارسة الحرية في الله بشكل كياني حقيقي هي في علاقة المحبة، لأن المحبة ليست صفة وإنما هي كيان الله نفسه حسب قول الرسول يوحنا الله محبة (١يوحنا ٤: ١٦). وهذا التعبير «الله محبة» يعني أنه «ثالوث»، ويعني بشكل ضروري إن الله كثالوث هو في شركة، هو محبة لأننا قد أكدنا أن الوجود = الشخص، وأن الكينونة = الأقنوم، وأن الأقنوم = الشخص، هكذا يصير من الواضح أن المحبة تمارس أقنومياً وليس كصفة من صفات الجوهر الإلهي، حسب الشائع في الفلسفة المسيحية السائدة في العصر الوسيط. والمحبة ليست شيئاً يصدر عن الله ولا هي صفة للجوهر، وإنما في إطار ما ذكرناه سابقاً، المحبة تكوّن الجوهر والجوهر ليس الوجود المجرد بل الجوهر هو في الله الوجود المتأقنم. فالمحبة هي التي تجعل الله هو الله، وهي التي تجعله حقاً وبشكل صحيح الإله الواحد. وهنا في إطار الفهم الصحيح لعقيدة الثالوث لا تصبح المحبة صفة تضاف للجوهر الإلهي بل تصبح المحبة هي أسمى ما في الكيان الإلهي وأعظم ما يميز الكينونة الإلهية[٢٠]. والمحبة تؤقنم الله وتؤقنم وجوده ولذلك لا يخضع الله

(٢٠) أسمى وأعظم ليس بالمقارنة بما في الله وإنما بالمقارنة بالمخلوقات فليس في الله إمكانية للمقارنة بين صفة وأخرى... إلخ ولذلك يقول ذهبي الفم نستطيع أن نقارن بين المحبة والعدل في الإنسان لأنه مخلوق أما في الله فلا تجوز المقارنة.

coptic-books.blogspot.com

للوجود من أجل الوجود بل يعلو على كل ضرورات الوجود من خلال المحبة، وتصبح محبته وحريته هي ما يكوّن وجودة.

الشخص كصورة الله

مما سبق يظهر لنا أن الوجود الإنساني كشخص وكصورة لله يضع الإنسان أمام اختيارين. إما حرية المحبة وإما حرية العدم والموت. وحرية العدم والموت هي رغم الجانب القاتم الذي فيها إلا أنها تكشف عن ممارسة للحرية الشخصية، فالكائن كشخص هو الذي يمكنه في حقيقة الأمر أن يمارس حريته ولو بشكل سلبي. ولكن فقدان الحرية والموت يجعل العدم النقيض التام لله الكائن كشخص والذي يمارس حريته في العطاء والمحبة والتسامي لا في القضاء على الذات. وعندما يتجه الإنسان للموت فإنه في الواقع يتجه للعدم، هذا العدم هو بلا مضمون لأنه رغبة في قتل الكيان، وفي نور الثالوث الكائن كشخص والذي يمارس حريته تصبح رغبة الإنسان في العدم هي رغبة في أن يكون شخصاً.

فالإنسان على صورة الله لا يرجو أن يوجد فقط أو أن يكون كائناً إلى الأبد. فغاية الحياة ليست مجرد البقاء بل أن يكون الإنسان شخصاً وأن يتمايز عن غيره وأن يصبح وجوده وكيانه حقيقة خاصة به كشخص غير قابل للتكرار[٢١]. والشخص لا

(٢١) الشخص فريد ووحيد في ذاته بما يميزه كشخص وغير قابل لأن يكون نسخة أو أن يتكرر.

coptic-books.blogspot.com

يمكن فهمه لمجرد أنه يتعالى على وجوده وينطلق إلى ما هو أبعد من رغبة الوجود، بل أنه يتعالى ليصبح أقنوماً له هوية خاصة به فريدة.

هنا يجب أن نتوقف عند أحد معالم الفكر المسيحي القديم الذي اعتقد بكل صواب أن كل فرد هو وحيد وفريد فقط كشخص، فهو ليس كمية عددية ولا علاقات تضاف على غيرها من علاقات، ولا هو يُحسب ضمن الكائنات والأشياء ولا يستخدم كوسيلة لتحقيق غاية حتى لو كانت هذه الغاية مقدسة. الشخص هو الغاية، والشخصانية[٢٢] هي تطور وتحقيق الذات لأن الشخصانية هي التي تجمع الأشخاص وتجعل الوجود الإنساني هو وجود شخصي جامع، وبالتالي يعبّر هذا الوجود الجامع عن الإنسانية وعن تطورها نحو الشخصانية. لكن ما نذكره الآن أشبه بسيف ذي حدين أي أنه مثل قضية الحرية التي أشرنا إليها :

الحد الأول هو أن الإنسان كشخص قادر على أن يستغرق في ذاته وأن يصبح أسير ذاته أنانياً إلى حد تدمير الحياة الاجتماعية حوله. مثل استخدام الحرية في قتل الذات. وهنا فإن الذي يحدد الشخص ليس العدم وإنما ان يعتبر وجوده كشخص مسألة نسبية وليس مسألة مطلقة، لأن وجود

(٢٢) الشخصانية Personnood وقد حولنا الاقلال من استخدام الكلمة لأنها قد تتحول إلى مضمون عقلي في اللغة العربية (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

الشخص بصورة مطلقة قد يحول الشخص الواحد إلى محيط من الفوضى والاستهتار. لكن الوجود النسبي للشخص يجعل الشخص (شيئاً) أو (قناعاً) بالمعنى الذي أشرنا إليه في المسرح اليوناني القديم. وهنا تعلو مأساة وتراجيديا الإنسان مما يجعل البحث عن هوية في الفكر المعاصر هو القضية الأساسية بسبب الضغط الاجتماعي والسياسي الذي يهدف إلى أن يجعل الشخص شيئاً مما يؤدي من آن لآخر إلى الانفجارات السياسية والعسكرية التي نشاهدها من آن لآخر في مختلف بلدان العالم.

وعجز الإنسان عن تأكيد هويته يؤدي في النهاية إلى الموت. والموت بمعناه العقلي والروحي غير مقبول من الإنسان طالما أن الإنسان يحيا كشخص له كيان خاص به ومتميز عن غيره وكفريد في هذا الوجود. أما الموت بالمعنى البيولوجي (الجسمي الطبيعي) فهو نتيجة طبيعية نرحب بها لأنه فقط بهذه الصورة تتطور الحياة وتستمر. وعلى الصعيد البيولوجي أي الحياة الإنسانية الطبيعية فإن الهوية الإنسانية تبقى بيولوجياً من خلال ولادة الأطفال وبقاء الوالدين في وجوه نسلهم. لكن هذا ليس هو بقاء الأشخاص وإنما بقاء النوع البشري مثل بقاء النوع في مملكة الحيوانات حيث يحتفظ كل نوع بنسل يبقى عليه في مواجهة ظروف البقاء للأصلح والاختيار الطبيعي. وبقاء الشخص الإنساني لا علاقة له بالزواج والولادة اللذين إذا دققنا النظر فيهما وجدنا أنهما يمدان الموت بالمزيد. وهكذا يظهر لنا أنه على الصعيد البيولوجي ما يبقى ويستمر هو

coptic-books.blogspot.com

النوع البشري الذي يمكن أن نسميه بالجوهر البشري، وهذه النظرة بالذات لا تجعل الشخص المتميز الهوية، قادراً على البقاء.

الشخص لا يبقى بما يميزه كفريد بالصفات والعلاقات ولا بما تتميز به الطبيعة أو الجوهر الإنساني فهذا في الحقيقة غير حادث بالمرة. وقد حاولت الفلسفة اليونانية القديمة بل وبعد ظهور المسيحية وبتأثير المسيحية نفسها أن تؤكد بقاء الإنسان وذلك بتأكد خلود النفس[٢٣] على اعتبار أن هذا الخلود هو بقاء الشخصية الإنسانية. ولكن خلود النفس لا يؤدي إلى بقاء الشخصية الإنسانية. وهكذا عادت الفلسفة اليونانية من الباب الخلفي أي عقيدة الخلود لتقول أن النفس خالدة بالطبيعة وذلك في حقيقة الأمر هو الانطولوجيا اليونانية القديمة. وحتى الله حسب هذه الانطولوجيا خالد بسبب طبيعته أي أن الخلود لا يملكه الله كشخص وإنما هو مفروض عليه من طبيعته أي أنه خلود الضرورة وحتمية الخضوع للجوهر. كان هذا مقبولاً لليونانيين وكان هذا بدوره التطور الطبيعي للفلسفة اليونانية نفسها التي لم يكن لديها مجال لفكرة الشخص وعندما امتزجت الفلسفة اليونانية باللاهوت

(٢٣) خلود الشخص لا ينبع من طبيعة الشخص وإنما في الشخص نفسه، وهذا في حالة الله، وأما في حالة الإنسان فالخلود هو منحة وعطية من الله للإنسان كشخص لا لكي يأسر الطبيعة الإنسانية بل لكي يبقي الشخص حياً.

coptic-books.blogspot.com

المسيحي خلقت مشاكل انطولوجية جمة وجعلت مشاكل الوجود والجوهر غير قابلة للحل أحياناً.

ويكفي أن نتصور أن حتمية خلود الله تجعل الله نفسه غير حر وغير قادر لو شاء أن يتجاوز الخلود وتجعل الله كشخص غير قادر على الارتفاع فوق ضرورات الطبيعة الإلهية.

والسؤال هو: كيف تبقى الهوية الفريدة للشخص مع أن الجوهر نفسه غير قادر على البقاء؟ في عصرنا الحديث تحاول الفلسفة الوجودية ذات النزعة الإنسانية غير المسيحية أن تجعل الموت نفسه ذو مضمون وجودي بأن تؤكد وحدة الوجود بعدم الوجود وتجعل تفاعل الوجود بعدم الوجود هو مصدر الموت. وهذا ليس مجال نقد هذه الفكرة بالذات ولا تحليل المضمون الانطولوجي للموت ولكن يكفي أن نقول أن الفلسفة الوجودية وقعت في ذات المشكلة الفلسفية القديمة التي وقعت فيها الفلسفة اليونانية وهي كيف يمكن للشخص أو الكائن أو الأقنوم أن يبقى حياً بعد الموت. والذين تأثروا بالفلسفة الوجودية في العصر الحديث لا يدركون أنهم يعودون إلى نظرية الوجود اليونانية القديمة ذلك أن انطولوجية الموت لا تسمح بكلام مناسب عن الله ينسجم مع انطولوجية الموت. فالعلاقة الشخصية بين شخص الله وأشخاص البشر هي التي تجعل الله «إله أحياء لا إله أموات» (متى ٢٢: ٣٢) وهذا يعني أن اللاهوت بعكس الفلسفة لا يقبل الموت ويدعو إلى الارتفاع فوق الموت نفسه مؤكداً أنه لا

coptic-books.blogspot.com

توجد انطولوجية للموت وإنما الموت هو «آخر عدو يبطل» (١كو ١٥: ٢٦).

الله ثالوث ولذلك هو حي

خلاصة ما سبق وذكرناه هو أن الله كشخص قادر على البقاء والحياة الدائمة ليس لأن جوهره باق دائم لأن هذا يحد من حرية الله ويخضع الله للطبيعة. وإنما لأن الله ثالوث وثالوثية وجوده هي التي تجعله فوق الموت. وإذا قلنا إن الآب له عدم الموت فهذا غير نابع من طبيعة وإنما نابع من الشخص، أي من أقنوم الآب ونابع بشكل خاص من كيانه الفريد الذي لا مثيل له ولا يمكن أن يتكرر فهو الآب الفريد والوحيد الهوية والذي يتمايز أزلياً عن الابن والروح، لأن الابن والروح كلاهما يدعوه «الآب». وإذا قلنا بأن الابن عديم الموت فهذا لأنه يأخذ عدم الموت من الآب أي من شخص الآب لا من طبيعة أو جوهر، وإنما من حقيقة وجوده كابن وحيد (لاحظ هنا تفرد الابن بلقب الابن الوحيد)، الذي سر به الآب. ولقب الابن الوحيد لا يعني فقط بأن هو وحده المولود من الآب بل يعني أن الابن محبوب من الآب بشكل وحيد لا مثيل له[٢٤]. وهنا نرى بشكل خاص أن

(٢٤) شرح ألقاب الابن في رسائل يوحنا للبروفسور اغوريديس – باليونانية – أثينا ١٩٧٣ ص ١٥٨.

coptic-books.blogspot.com

انطولوجية المحبة في الله تعني أن الخلود وعدم الموت لا تخص طبيعة كما قال الفلاسفة قديماً، وإنما هي خاصة بالعلاقة بين الأقانيم، وبشكل خاص علاقة أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس بالآب نفسه.

والروح القدس أيضاً هو الروح مانح الحياة أو الرب المحيي لأنه هو شركة (٢كو ١٣: ١٤). وهذا يعني أن الحياة الأبدية في الله هي حياة شخصية أي أنها الشركة الحرة الخاصة بين الأقانيم وأنها شركة محبة. وبالتالي تصبح الحياة والمحبة متأقنمة وظاهرة في شخص كل أقنوم. وبذلك نستعيد التعليم الإنجيلي الذي يؤكد لنا أن الموت ظلام وأن الموت هو عدم محبة أي عدم حياة وبالتالي نفهم أن الحياة الإلهية هي فوق الموت لأنها حياة ومحبة ولا ظلمة في الله. فالله يَحِب ويُحَب لأن الآب يحب الابن والابن محبوب والروح هو شركة المحبة. وكل أقنوم حي بسبب شركة المحبة وخارج شركة المحبة يفقد كل أقنوم ما هو فريد وخاص به ويصبح وجوداً مثل أي وجود وشيئاً بلا هوية أو إسم بلا وجه. وهذا يعني أيضاً أن الموت بالنسبة للشخص هو أن يتوقف هذا الشخص عن أن يحِبُ وأن يُحَب أي أن يفقد ما هو فريد وغير متكرر. بينما الحياة بالنسبة للشخص هي بقاء ما هو فريد وخاص به ويميزه كشخص لأنه يُؤكَد ويبقى بالمحبة.

coptic-books.blogspot.com

صلاة الترحيم في التراث الشرقي

يلزمنا أن نتعلم من طقوس الكنيسة الشرقية هذه الحقيقة الوجودية التي يسهل علينا أن نميزها لأنها تمارس في الليتورجية ولذلك فهي معروفة لكل المؤمنين. فنحن نذكر أسماء الراقدين في صلاة الترحيم في القداسات. ورغم أن هؤلاء رقدوا ورحلوا عن الحياة إلا أن أسمائهم – وهذا هام جداً – لا تزال تُذكر. ومن العهد الجديد نعرف أن الراعي الصالح ربنا يسوع المسيح يدعو خرافه الخاصة – التي كل منها فريد – بأسماء (يوحنا ١٠: ٣)، بينما الذين لا تربطهم بالله شركة هؤلاء ليست لهم أسماء لأن الرب اكتفى بأن يقول لهم (لا أعرفكم) (متى ٢٥: ١٢).

وهنا نرى ماذا تريد الكنيسة أن تقول لنا. فسر الشخص وحقيقة وجوده باعتبار أن الشخصية هي دعامة الوجود (وليس الوجود هو دعامة الشخصية) قائم على حقيقة هامة وهي أن المحبة تجعل كل شيء مهما كان، له مضمون شخصي وتجعل من أبسط الأشياء التي لا تحظى بالاهتمام شيئاً خاصاً وذات قيمة بل إن المحبة تعطي إسماً لكل شيء. وتحفظ المحبة الأسماء لأن الاسم ذو دلالة هامة. فالاسم هو المدخل إلى الحياة الأبدية لأن الحياة الأبدية هي حياة تحفظ فيها هوية كل الأشياء لأن كل الأشياء بسبب المحبة تنال الاسم الذي تعطيه المحبة ولذلك يدعو الآب الخليقة كلها باسم جديد من خلال

coptic-books.blogspot.com

علاقته بالابن وبالروح القدس، ويدعوها بسبب المحبة لكي تبقى كل الأشياء، وتحفظ المحبة الهوية أي الاسم. أما الموت الأبدي فهو أن تسقط الأشياء في الظلام، في الموت، وتصبح أشياء بلا أسماء وتضيع هويتها. هذا هو الدرس البسيط والعميق الذي نراه في الافخارستيا عندما ندعو أسماء الراقدين لأنهم أحياء ولأن هويتهم لم تسقط ولأننا نشترك معهم كما اشتركوا معنا في الافخارستيا. والشركة محبة والمحبة حياة أبدية.

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثالث

من الوجود البيولوجي إلى الوجود الكنسي

الأهمية الكنسية للشخص

بقاء الشخص إلى الأبد ككيان فريد غير متكرر وكأقنوم حر يُحِب ويُحَب هما تزامل الخلاص والكرازة معاً.

وفي لغة الآباء يسمى هذا بالشركة في الطبيعة الإلهية أو تأليه الإنسان Theosis. ولا يجب فهم ذلك بشكل فلسفي حيث يشترك الإنسان في طبيعة أو جوهر الله فهذا موضوع لا مكان له في اللاهوت المسيحي، فنحن حاولنا أن نشرح تعليم الآباء على أنه لا يفصل بين الوجود والشخص أو الأقنوم والجوهر، فالله لا ينتمي إلى طبيعة، بل الله هو شخص له طبيعة متأقنمة لا وجود لها خارج حياة الأقانيم كما ذكرنا.

coptic-books.blogspot.com

هنا الشركة في الطبيعة الإلهية ليست شركة في جوهر الله وإنما شركة في حياة الأقانيم وفي كيان الله المتأقنم[1]. وهكذا تصبح غاية الخلاص هي أن تتأقنم حياة الإنسان وتتحقق متأقنمة في الله ويصبح الخلاص هنا هو تحقيق نمو شخصية الإنسان. ولكن يجب أن لا نقع في الخطأ القديم الذي وقعت فيه الفلسفة اليونانية وهو أن نتحدث عن الإنسان كنوع أو جنس أو فرد وإنما الإنسان كشخص، وهنا يجب أن نسأل أليس الإنسان شخصاً بدون الخلاص؟ ألا يكفي أن يكون كل فرد هو إنسان مما يؤهله لأن يكون شخصاً؟.

وجواب آباء الكنيسة هو أن الشخص هو صورة الله ومثاله، ولذلك موقف لاهوت الآباء هو موقف حذر من دعوة العلوم الإنسانية ومذاهبها الاجتماعية لما يعرف بأن كل فرد في النوع الإنساني هو شخص. وبكل دقة يرى الآباء الإنسان محصوراً بين نوعين من الوجود. **الأول** هو «الوجود أو الكيان الإنساني» البيولوجي **الثاني** هو «الوجود أو الكيان الكنسي». وعندما نقارن في إيجاز شديد الفروق الدقيقة بين «الوجود الإنساني البيولوجي» و «الكيان أو الوجود

---

(١) وحسب الشرح السابق في الفصلين الأول والثاني يظهر بكل وضوح أن الذين يتصورون الشركة في الطبيعة الإلهية على أنها تحوّل اتوماتيكي في كيان الإنسان، إنما هم في الواقع يؤكدون التعليم الفلسفي اليوناني القديم الذي جعل الطبيعة والجوهر هو أساس كل شيء وعلم بحتمية خضوع كل فرد إلى ما تمليه وتفرضه هذه الطبيعة. ومن يدرس كتابات الآباء يرى أن الحياة الأبدية وعدم الموت هى شركة الإنسان في حياة الله المتأقنمة والتى لا وجود لها خارج أقانيم الثالوث.

coptic-books.blogspot.com

الكنسي» سنجد لماذا يتعين علينا أن نرى أن موضوع الشخص هو موضوع خاص باللاهوت المسيحي كما شرحه الآباء.

الوجود البيولوجي

يتكون كيان الإنسان البيولوجي بالولادة من الوالدين. ولذلك كل إنسان يأت إلى هذه الدنيا إنما يحمل هذا الكيان أو هذا الأقنوم والذي هو على نحو ما متصل بالمحبة لأنه نتيجة شركة اثنين (الأب والأم). والحب الشهواني أو الجنس Erotic حتى ذلك الذي يمارس بكل برود وبلا عاطفة جياشة يظل رغم ذلك بشكل مذهل سراً من أسرار الوجود، لأنه يخفى تحت رداء الشهوة عمقاً من أعماق الشركة ونزعة إلى تجاوز الوجود الفردي بخلق شركة. فالشهوة ميل إنساني للشركة ولكن ذلك الميل يجعل من شهوتين كل منهما تقضي على ما يسعى إليه الإنسان بسلوكه الشهواني أي أن يكون شخصاً، لأن تحقيق الشخصية الإنسانية بالشركة وبالمحبة لا يتحقق إذا تحولت الشهوة إلى ضرورة وحتمية يجب إشباعها. وهكذا نرى أن الشهوة الأولى هي ما يمكن أن نسميه شهوة الخضوع للضرورة أي ما تمليه الشهوة. هنا يخضع الشخص بيولوجياً وعقلياً وسلوكياً إلى ما يسمى بالطبيعة الإنسانية وعندما تسود فكرة الطبيعة يتغير سلوك الإنسانية وتصبح الشهوة غريزة طبيعية ونزعة يجب الخضوع لها. وعندما تصبح

coptic-books.blogspot.com

الغريزة والشهوة ضرورة ويجب الخضوع لها يفقد الإنسان حريته إزاء الشهوة وإزاء حكم الضرورة. هذا يجعل الإنسان كائناً ليس كشخص يتصرف بحرية وإنما كائن خاضع لحكم وضرورة الطبيعة. وطبعاً النتيجة هي ما سبق وأشرت إليه من قبل وهي أن الكائن لا يقدر على أن يؤكد حريته المطلقة كشخص بل يقع تحت وطأة وثقل الطبيعة. وإذا حاول الإنسان الساقط تحت ثقل الطبيعة أن يتحرر وينال حريته المفقودة أي حرية وجوده المطلقة فإنه يواجه مأزق العدم نفسه.

والشهوة الثانية هي نتيجة طبيعية للشهوة الأولى وفي بداية تكوينها تظهر في المرحلة الأولى كشهوة تدفع الإنسان للفردية Individualism مما يؤدي إلى انفصال أو عزلة الفرد نفسه Separation ككائن عن غيره من البشر، وأخيراً تظهر هذه الشهوة في مرحلتها الأخيرة في شكل الموت وهو في الحقيقة تفكك الكيان الإنساني[٢]. هنا بشكل خاص يصبح الكيان الإنساني أسيراً لكل ضرورات الوجود البيولوجي. هذا الأسر نفسه ينتهي إلى حتمية الاستمرار في الخضوع وإلى دوام

---

(٢) الفردية هي رغبة في إشباع الذات دون شركة في حياة الآخرين ودون الاقدام على تضحية من أجل الآخرين ولذلك تؤدي إلى الانفصال والعزلة أي أنها صورة للموت. والذي يدرس العهد القديم بشكل خاص يرى أن الأموات يوصفون بأنهم خيال وأنهم في (أرض النسيان) أي القبور. لأنهم انفصلوا عن حياة الجماعة. أما في العهد الجديد فلا يحسب من صار عضواً في جسد المسيح ميتاً ولا هو في عزلة الموت إذ لا شيء ميت في يسوع المسيح الذي هو الحياة وهو الذي قام وداس قوة الموت.

coptic-books.blogspot.com

القيام بكل ما تطلبه الضرورة البيولوجية. والنتيجة حلقة مفرغة يدور فيها الإنسان، لأنه يتصور أن له طبيعة (يفقد الإنسان تصوره لذاته كشخص) وأن الطبيعة لها مطالب وضرورات ويخضع لهذه المطالب وتكون النتيجة خلق المزيد من الأجساد أي إكثار الكيان الإنساني ونمو عدد الذين يوجدون بشكل بيولوجي وبالتالي يسعى هؤلاء إلى تحقيق المطالب والضرورات البيولوجية مما يؤدي في النهاية إلى صراعات وتفكك وعزلة لأن إرضاء مطالب ما يسمى بالطبيعة يصطدم بما يطلبه الآخرون. هذه هي الحلقة المفرغة التي يدور فيها الإنسان من عصر إلى عصر لأنها تقوم على إرضاء بيولوجية الوجود الإنساني. وما أغرب التناقض الذي نراه. فالجسد الذي ولد كثمرة اتحاد اثنين (الأب والأم) يتحول إلى قلعة للأنانية ويصبح فعلاً (قناع) الوجود الإنساني ويمنع الإنسان من أن يصبح شخصاً أي من تحقيق ذاته بواسطة الحب والحرية. ومع أن الجسد ينزع إلى أن يحقق غاية وجود الإنسان كشخص إلا أنه في هذه الحالة يصبح في النهاية العامل الحاسم في بقاء الإنسان كفرد. ونتيجة هذا الوضع هي أن الإنسان إذا سعى لكي يؤكد وجوده ويحقق ذاته لا يحتاج إلى علاقة كيانية أي علاقة انطولوجية[٣] حتى مع الوالدين بل

(٣) العلاقة على المستوى النفسي Psychological قد تكون تعبيراً عن الخوف ورفض الآخرين ولكن بشكل مهذب تجنباً لمزيد من المشاكل وتظل سطحية تدور في دائرة المجاملات وتحفظ قواعد السلوك الأخلاقي والاجتماعي لحماية المصالح لا عن اقتناع بالمحبة.

coptic-books.blogspot.com

بالعكس يصبح القضاء على هذه العلاقة هو الشرط الأساسي الذي يسبق تحقيق الحرية وتحقيق الذات.

الموت والعزلة

يقضي الموت كنهاية على الوجود البيولوجي للإنسان فهو في الحقيقة النهاية الطبيعية لما يعرف بالطبيعة الإنسانية، ولكن الموت يضع حداً لوجود الفرد كفرد لأنه يختم وجود الفرد بنهاية مفزعة وهي مأساة القضاء على الذات بانحلال الجسد وتحوله إلى تراب واختفائه من الزمان والمكان. ومع أن الإنسان كان يسعى لتحقيق ذاته وإشباع ضرورات وجوده البيولوجي عن طريق الجسد إلا أنه بدأ يكتشف أن الجسد يقود الإنسان إلى الخضوع النهائي والحتمي لهذه الضرورات وأن النهاية الحقيقية هي مزيد من العزلة وإلى طريق زائف وهو الموت، وإن فشل ما نسمية «الطبيعة» في الكشف عن هوية الإنسان الحقيقية إنما يظهر في مسألتين كل منهما ملتصقة بالأخرى في الوجود البيولوجي للإنسان.

الأولى وهي مضادة تماماً لما تولده الميول والرغبات نفسها، فلكي يبقى الكيان البيولوجي للإنسان عليه أن يختبر ويعبّر عن نفسه في نشوة الحياة ليس بالمنطق وقواعده وإنما بطريقة تلقائية حرة، ليس كوجود وبعد ذلك كشخص وهذا يستدعي الاصطدام بغيره من الناس الذين يجدون في التصرفات التلقائية غير المقيدة بقواعد السلوك والآداب ما يهدد النظام

coptic-books.blogspot.com

بل وحرية الآخرين. فكيف يجد الإنسان لذة الحياة ونشوتها وهو مقيد وكيف تنطلق النشوة في كيان الإنسان وهو يحسب كل حركاته ويقيد كل تصرفاته لكي يبقى، عضواً غير منبوذ في المجتمع وهذا هو التناقض.

والمسألة الثانية أكثر عمقاً فالإنسان يريد البقاء ولكن البقاء - أي بقاء الكيان البيولوجي - مهدد ليس بسبب خطأ (عصيان آدم) ولكن لأن بقاء الكيان البيولوجي إنما يعتمد أصلاً على طريقة تكوينه وكيفية ظهوره على الأرض أي الحمل والولادة وهما الضمان الوحيد للبقاء البيولوجي للنوع الإنساني[٤]. وهنا نرى فشل الطبيعة في الاحتفاظ بالنوع الإنساني لأنها رغم رغبتها في البقاء عن طريق التناسل إلا أن التناسل نفسه والكثرة العددية للبشر هي بذاتها التي تهدد النوع الإنساني نفسه بسبب كثرة وتعقد العلاقات البشرية أي مشاكل الإسكان والاقتصاد والحروب والأمراض... الخ.

---

(٤) اعتبر مكسيموس المعترف وهو يتبع في ذلك تعليم القديس غريغوريوس النيسي (خلق الإنسان فقرة ١٦ – ١٨ مجلد ٤٤: ١٧٧) إن الرغبة الجنسية هي نتيجة السقوط وليست السقوط نفسه (راجع Ambigua 41 – 24 – PG 81, 1309)، وهذا في الواقع تعليم مضاد لتعليم المانوية (هرطقة ماني)، فالرغبة في الاستمرار البيولوجي للإنسان هي رغبة عميقة لا تظهر في الحياة الجنسية فقط وإنما في البطنة وحب السلطة والمال واستعباد واخضاع الآخرين والتسلط لأن كل هذه هي مظاهر لرغبة عميقة في الإنسان لغلبة الموت.

coptic-books.blogspot.com

كل هذا يؤكد أن الوجود البيولوجي للإنسان إنما هو وجود تراجيدي مأساوي وأن الإنسان يظهر بصورة حزينة مأساوية. لقد ولد الإنسان بسبب نشوة عميقة كامنة في الوجود الإنساني ولكن هذه النشوة الصادرة من الحب الشهواني تصبح مقيدة بضرورات الحياة البيولوجية وبذلك تفقد حريتها في التصرف وعندما تخضع هذه النشوة العارمة للقيود بفقد حريتها الانطولوجية (حرية الوجود)، وأيضاً فإن الإنسان يولد وينال كيانه البيولوجي أي الجسد ولكن مع الجسد تدخل عناصر أخرى تهدد الجسد نفسه وهي الرغبة في الفردية وعدم الشركة وعزلة الموت. بل ما أغرب هذا الواقع فالنشوة نفسها التي تحاول الوصول إلى ما هو أعلا من الواقع الإنساني المحدود تجد نفسها أسيرة للفردية نفسها.

والجسد الإنساني هو أداة هذه المسألة فبكل يقين هو آداة الشركة مع الآخرين عن طريق تصافح الأيدي، العناق، القبلات، وخلق اللغة والحوار وآداب التخاطب، بل الفن. ولكن ذلك الجسد نفسه يصبح (قناع) النفاق وقلعة (الفردية) ومركبة العزلة التي تؤدي في النهاية إلى الموت. وعن ذلك قال الرسول بولس (من يخلصني أنا الشقي من جسد هذا الموت) (رو ٧: ٢٤). أما قمة المأساة فهي ليست في الوجود الإنساني كشخص مهدد بالجسد أي بالكيان البيولوجي وإنما لأن الإنسان يريد أن يكون شخصاً عن طريق هذه الأداة أي الجسد ويفشل على النحو الذي ذكرناه. هنا تصبح الخطية هي هذا الفشل. وفي إطار ما ذكرناه تصبح مأساة الخطية في أنها محاولات نمو الكائن

coptic-books.blogspot.com

لكي يكون شخصاً وهذا هو بالطبع الامتياز الحقيقي لكل كائن، ولكن هذا الامتياز أي المحاولات هو المأساة نفسها بسبب الفشل في أن يكون الكائن شخصاً.

خلاص الشخص

وتبعاً لذلك، فكي يصبح الخلاص ممكناً، ولكي ينجح الكائن أن يكون شخصاً، فمن الضروري أن الحب الشهواني والجسد كتعبيرين عن النشوة وعن كيان الشخص، أن يتوقفا عن أن يكونا حاملين للعزلة والموت، ولكن هذا يستدعي وجود أو تحقيق أمرين كليهما ضروري:

أولاً: إن الحب الشهواني والجسد وكلاهما يكونان الكيان البيولوجي للإنسان يجب أن يبقيا ولا يقتلا لأن محاولة التهرب من هذين العنصرين تؤدي إلى حرمان الإنسان من وسيلة التعبير عن نفسه أي من التعبير عن رغبته في أن يكون شخصاً وأن يتجاوز كيانه البيولوجي في النشوة Ecstasy. فالحب الشهواني والنشوة كلاهما يحققان الشخصية(٥).

---

(٥) التعليم بالخلاص غير الملهم من روح الآباء ولا يعبر عن لاهوت الآباء خلق هذه المشكلة المزدوجة في الحياة الروحية حيث يطلب هؤلاء المعلمون من الناس أن يكونوا أشخاصاً بلا لذة ونشوة وذلك بمحاولة السلوك الأخلاقي التقوي أو طلب اللذة والنشوة دون أن يرتبط هذا الجانب الشخصي ويتحول هذا إلى نوع من الهرب من الجسد يشبه التصوف اليوناني القديم. بينما في لاهوت الآباء فإن الأساس السليم للحياة الروحية هو الاحتفاظ بالنشوة وبالشخص في إطار نمو الإنسان كصورة الله دون الوقوع في تطرف التقوى الفردية التي تؤدي إلى العزلة أو حصر التوبة وتجديد الكيان في المحاولات الدائمة لقتل الأهواء مما يجعل الأهواء واللذة تصبح عائقاً تفرضه الطبيعة وتحتم الخضوع له.

coptic-books.blogspot.com

ثانياً: أن يتغير كيان الإنسان نفسه ليس بطلب تغيير السلوك الأخلاقي وإنما بنوع من الميلاد الجديد للإنسان، حيث لا يلغي هذا الميلاد من فوق الجسد أو الحب الشهواني وإنما يتغير محتواهما وطاقتهما ويتحولان إلى قوة حياة في وجود وكيان جديد للشخص بما يجعل الحب الشهواني والجسد يرفضان النشاط والسلوك المؤدي إلى الفردية والعزلة ثم الموت، وإلى الاقبال على المحبة الباذلة حيث يتم العطاء بحرية وتصبح المحبة الشهوانية والجسد قوة تكوّن الشخص الجديد الذي أريد أن أصفه بـ: «أقنوم الوجود الكنسي» أو «الشخص الكنسي».

الشخصية الإنسانية الكنسية

تتكون هذه الشخصية بالميلاد الجديد في المعمودية. فالمعمودية كميلاد جديد هي التي تكون الشخص. وكما أن الحمل والميلاد الجسدي هو الذي يكون الكيان البيولوجي للإنسان، هكذا تؤدي المعمودية إلى كيان جديد أي الميلاد الثاني (١بطرس ١: ٣) وفي هذا الحدث، يُخلَق الكيان الكنسي الجديد.

دور المعمودية في خلق الكيان الإنساني:

ما هو أساس هذا الكائن الجديد؟ وكيف يتأقنم الإنسان في المعمودية؟ وماذا يعني ذلك؟

coptic-books.blogspot.com

لقد ذكرنا من قبل أن أحد المشاكل الأساسية في الوجود الإنساني هي الخضوع التام لما نحس به من مشاعر ورغبات في كياننا البيولوجي وكيف أننا نطلب النشوة الجسدية من خلال العلاقات الإنسانية منذ أن نولد كأطفال مما يجعل هذه الرغبات تظهر الطبيعة البشرية كأنها كائنة قبل الشخص وأن الطبيعة هي التي تملي مطالبها على الشخص في شكل ما يسمى بالغرائز. هذا يقضي على الحرية وهذه الحرية هي أساس الوجود الإنساني.

مما لاشك فيه أن الرغبات والمشاعر نابعة من حقيقة مخلوقية Createdness الإنسان وهي الحقيقة التي تفرض على الإنسان أن يواجه ضرورات الوجود والحياة على النحو الذي شرحناه ولكن ذلك يؤدي إلى عجز الكيان البيولوجي عن مواجهة «القوانين الطبيعية» الخاصة بالوجود البيولوجي نفسه ويهدد الوجود البيولوجي على النحو الذي شرحناه أيضاً لأن ما يتصوره الإنسان كضرورة هو ذاته الذي يهدد وجوده الإنساني فماذا يمكن أن يتغير؟

الجواب هو أن الإنسان في حاجة إلى تغيير جذري يجعله كائناً وشخصاً دون أن يقع تحت تأثير وحتمية الضرورات البيولوجية التي نبالغ فيها ونجعلها قوام الحياة الإنسانية. فكيف يمكن أن يتم التغيير إذا ظل الإنسان في دائرة

coptic-books.blogspot.com

المخلوقية[٦]. Createdness. هذا يعني أن يولد الإنسان من الله نفسه بالمعنى الذي ذكره الإنجيل «من فوق» أو «من جديد» (يوحنا ٣: ٣، ٧) أي أن يولد من جديد في المعمودية، فالمعمودية تعطي هذا الكيان الجديد الذي يولد من فوق من الله لكي تكون الحياة الجديدة لكل شخص متأقنمة على أساس غير مخلوق أي على أساس الميلاد الجديد.

المعمودية واتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح

يبشر لاهوت الآباء بأخبار سارة. هذا الخبر السار ولد خلال الصراع الطويل ضد الهرطقات التي حاولت أن تطمس هذا الخبر السار أي اتحاد اللاهوت بالناسوت في ربنا يسوع المسيح أو ما يعرف باسم الخرستولوجي Christology. والخرستولوجي يبحث في ذلك الاتحاد الشخصي بين شخص الابن الوحيد والناسوت. ومن خلال هذا الاتحاد يكتشف الإنسان كيف يولد من جديد وكيف يبقى له ضمان الوجود الجديد المتأقنم الذي لا ينتمي إلى «القناع» ولا إلى «الضرورات» البيولوجية. الإنسان الجديد الذي ليس هو خرافة بل حقيقة تاريخية مصدرها التاريخي هو الرب يسوع المسيح نفسه. فالرب يسوع يدعى المخلص، ونحن لا نبرز

(٦) مخلوق تعني دائماً عند الآباء ليس كلمة (محدودة) كما نفهمها اليوم وإنما تعني (محدود) بالمعنى القديم أي اعتماد الإنسان المطلق على علة أو سبب وجوده أي الله، وكل ما ليس له علة وجود في ذاته هو مخلوق.

coptic-books.blogspot.com

هذا اللقب لأنه لقب تاريخي ينتمي إلى رؤية جميلة آتية إلينا من الماضي البعيد، وإنما لأن لقب المخلص يحمل حقيقة وجودية وكيانية للإنسان الذي يجسده يسوع المسيح في ذاته لكي يؤسس الكيان الجديد لكل شخص. هذه الرؤية التاريخية والحقيقية شيدها الآباء على دعامتين كل منهما لا يمكن اغفالها بالمرة.

الدعامة الأولى: وهي أن هوية يسوع المسيح هي ذات هوية الأقنوم الثاني في الثالوث القدوس أي أقنوم الابن. وهنا نرى أن الصراع الطويل ضد النسطورية لم يكن صراعاً على أساس أكاديمي وفلسفي كما يشاع أحياناً في بعض كتب اللاهوت، وإنما كان صراعاً ضد تشويه الإنجيل وحول سؤال أساسي جداً وهو: كيف استطاع يسوع المسيح أن يخلص الإنسانية وأن يكون في نفس الوقت إنساناً له كيان إنساني مثل كياننا أي الكيان البيولوجي؟ وإذا كان للمسيح وجود بيولوجي فهذا يعني أنه لم يكن حراً بل خضع لكل ضرورات الوجود والحياة الإنسانية مما جعله عاجزاً عن أن يخلص نفسه من مأساة الإنسانية؟

وجواب الآباء على هذا السؤال هو أكبر من أن يلخص هنا ولكن من الضروري أن نلمس الأساس العقيدي نفسه لكي نفهم كيف صاغ الإنجيل البشارة بالحياة وبالكيان الجديد. فالمسيح ولد من عذراء لا لكي يهرب من الخطية وإنما لأن الولادة من العذراء هي ولادة بالروح القدس وهذا يعني أن كيانه الإنساني البيولوجي متجذر في الله. وهكذا عبر الآباء عن هذه الحقيقة

coptic-books.blogspot.com

مؤكدين أن بداية المسيح البشرية لم تكن على النحو البيولوجي الشائع بل بشكل جديد لأنه جاء لكي يؤسس الإنسانية الجديدة المولودة من الله. وتصل هذه الحقيقة إلى كمالها بمسحة المسيح بالروح القدس في الأردن وبموته وقيامته. والقيامة في الواقع هي المحك الدقيق والضروري لكل التيارات اللاهوتية التي نراها في الخرستولوجي. فالجسد وحده لا يضمن الخلاص للإنسان أي اتحاد اللاهوت بالناسوت وإنما القيامة هي التي ضمنت لنا الخلاص لأن الموت أُبيد بشكل نهائي بقيامة الرب من الأموات. لكن من الذي قهر وأباد الموت؟ اللاهوت الذي عندما إتحد بالناسوت حقق غلبة الموت بالناسوت. وهنا يجب أن نرى أن الآباء عندما ينكرون خضوع المسيح الأهواء فهم لا يفعلون ذلك لأنهم يريدون أن يجعلوا المسيح فوق الأهواء أو يريدون أن يجعلوه غريباً على الإنسانية وإنما لأن القيامة غلبت كل هذه الأهواء وأبادت الموت. فقد تألم المسيح ومات ولكنه لم يُؤقنم بالموت والآلام، بل تأقنم بالقيامة فظهر بقيامته أنه الإله المتجسد الذي فيه تأقنمت الطبيعة وصارت متأقنمة في شخص أو أقنوم الابن. هذه الحقيقة عبر عنها لاهوت الآباء وتأكدت في المجامع المسكونية حيث شدد الآباء على اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص أو أقنوم ربنا يسوع المسيح.

الدعامة الثانية: والاتحاد الأقنومي للطبيعتين الإلهية والإنسانية في المسيح هو اتحاد شخصي أي تم في شخص الابن الكلمة وليس اتحاد طبيعتين بشكل آلي (ميكانيكي).

coptic-books.blogspot.com

هنا يظهر بشكل دقيق الفرق بين الشرق والغرب. بين الآباء وعلى رأسهم القديس كيرلس الاسكندري الذي يمثل لاهوت الشرق، والآباء الغربيون الذي يمثلهم لاون الأول. ونقطة البداية لفهم الخلاف بين الشرق والغرب هي بشكل واضح في الكلام عن الطبيعة والجوهر. فالآباء مثل القديس كيرلس الاسكندري يتحدثون عن اتحاد أقنوم الابن بالناسوت أي الشخص. بينما الغرب وعلى رأسهم البابا لاون يتحدث عن الطبائع أو الجوهر. ومع أن هذه النقطة تبدو لأول وهلة بلا قيمة إلا أن الحقيقة هي عكس ذلك. فقد حاولنا منذ بداية الشرح أن نؤكد أن الله هو الله ليس لأن الله له طبيعة وجوهر وإنما لأن الله هو شخص أو أقنوم، فالشخص هو الذي يؤقنم الطبيعة ويجعل لها الصفات والقدرات التي نراها في الشخص. وكذلك الإنسان هو إنسان ليس لأنه ينتمي إلى الطبيعة بل لأنه يؤقنم الطبيعة الإنسانية فيه ويجعلها طبيعته. وهكذا يظهر لنا أن الفارق الذي نتحدث عنه هو فارق كبير. فالإنسان في المسيح هو كائن تام وكامل كشخص أي في المحبة والحرية، أي الإنسان الذي قد تأقنم في المسيح وصار له كيان ووجود في المسيح هو متأقنم، إنه شخص، وليس وجوداً غامضاً غير متأقنم. وهنا نفهم أن الاتحاد الأقنومي[٧] هو أن يكون الناسوت الذي أخذه المسيح عن العذراء متأقنم بالاتحاد

(٧) الاتحاد الأقنومي أو Hypostatic Union هو ترجمة لنفس التعبير اليوناني عند القديس كيرلس الاسكندري ويعني اتحاد أقنوم الله الكلمة بالناسوت.

coptic-books.blogspot.com

بالكلمة وليس شخصاً أو أقنوماً آخر ينمو بشكل بشري في عزلة عن أقنوم الكلمة حسب تعليم النساطره[٨].

فما هي غاية الخلاص في المسيح؟ الجواب هو أن يتأقنم الإنسان من خلال اتحاده بالله في المسيح يسوع وأن يكون أقنوماً لا يخضع لحتمية وضرورات الوجود البيولوجي بل يؤقنم وجوده البيولوجي في اتحاده بالله، فلا يصبح ذلك الوجود البيولوجي هو مصدر الفردية والانقسام والعزلة ثم الموت، بل عندما يتأقنم يصبح دعوة للشركة. هنا نرى كيف تم الانتصار في المسيح على ضرورات الوجود، فالإنسان يعبر عن احتياجاته الإنسانية كشخص ويجعل هذه الاحتياجات متأقنمة من خلال علاقته الشخصية أو الأقنومية بالله. هذه العلاقة الأقنومية أو الشخصية مصدرها المعمودية كعلاقة شخصية بالله في المسيح، وتنمو متأقنمة متجهة نحو الله. ودور المسيح هنا هو دور أساسي لا مجال للمساومة عليه. فما يملكه الابن المتجسد كأقنوم أي ما يجعله ابن الله وابن الآب هذا يمنحه للإنسان في التبني أي في المعمودية وهذا هو جوهر المعمودية

(٨) وعلى أساس شرح القديس كيرلس الاسكندري للتجسد يظهر بكل وضوح أن طبيعة الناسوت ليست طبيعة بشرية بشكل مجرد بل طبيعة متأقنمة بسبب اتحادها بأقنوم الكلمة. وهنا يظهر لنا أن الخلاف حول «طبيعة واحدة للكلمة المتجسد» وهي عبارة القديس كيرلس هو خلاف شرقي مع الغرب، أي أننا هنا إزاء انعدام التمييز بين الأقنوم والطبيعة في لاهوت الاسكندرية واعتبار أن الأقنوم هو مصدر ومكون الطبيعة، يمكن ترجمة عبارة القديس كيرلس إلى أقنوم واحد للكلمة المتجسد وهو ما نراه في كتب الكنيسة (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

نفسه[٩]. هنا يتحول الإنسان في المسيح إلى حياة إنسانية متأقنمة وجديدة وهي الحياة التي وصفتها بالحياة الكنسية لأنها حياة توهب في المعمودية ولا يخلقها الإنسان لنفسه. فالإنسان الكنسي هو الحقيقة الجديدة، هو الشخص الجديد الذي فيه تتأقنم الحياة الإنسانية في المعمودية بسبب ما يعطيه الله في المسيح وبالروح القدس.

الوجود البيولوجي الجديد للإنسان

أين وكيف يتحقق هذا الوجود البيولوجي الجديد للإنسان؟ الشق الأول من السؤال سهل فالكيان أو الوجود الإنساني الجديد يتحقق ونراه في الواقع في الكنيسة. وهنا علينا أن نتوقف أمام عدة تشبيهات نراها في كتابات الآباء فالكنيسة هي «الأم» وجوهر هذا التشبيه هو أن الإنسان الجديد يولد كشخص في الكنيسة. وكل مؤهلات هذا الإنسان الكنسي هي مؤهلات روحية وبيولوجية للشخص الجديد تجعله مختلفاً تماماً عن الكيان البيولوجي الخاضع لحتمية الوجود.

(٩) المعمودية شيدت على معمودية المسيح نفسه. هذا ما نراه في احتفاظ الشرق باسم (الأردن) لجرن المعمودية، وفي الاحتفاظ بنداء الآب (هذا هو ابني الحبيب أو ابني الوحيد الذي به سررت). وقد وجه الآب هذه الكلمات للابن في حضور الروح القدس حيث تقال في المعمودية في الكنيسة حيث يتم التبني وحيث يصبح الكيان الإنساني نفسه جديداً على أساس العلاقة مع الثالوث بالشكل الذي عبر عنه الرسول بولس في حديثه عن روح التبني الذي يجعلنا نقول «يا أبا الآب» (رو ٨: ١٥).

coptic-books.blogspot.com

وما هي مؤهلات هذا الوجود الجديد؟ أهم هذه المؤهلات هي ما نراه في الكنيسة نفسها الأم التي تلد فهي ليست قائمة على القوانين البيولوجية وبالتالي عندما تلد الشخص فهو لا يولد حسب هذه القوانين البيولوجية مما يجعله غير خاضع في علاقته بالكون لهذه القوانين البيولوجية. وهذا نراه في حياة المسيحيين في القرون الأولى، وهؤلاء كان لديهم وعي صافي وواضح بحقيقة الكنيسة فأدرك هؤلاء أنهم فوق القوانين البيولوجية التي خلقها الكيان البيولوجي للإنسان ولذلك حوّلوا التعبيرات الخاصة بالأسرة وبالزواج نفسه إلى الكنيسة (أنظر أفسس ٥: ٣٢). وهكذا الأب بالنسبة للوجود الكنسي وللإنسان الكنسي ليس الأب الذي يخصب الأم بل الآب هو «الذي في السماء»، والإخوة هم أعضاء الكنيسة وليس الإخوة حسب اللحم والدم فقط، لأن علاقة اللحم والدم فقط هي العلاقة البيولوجية البحتة التي جاء الإنجيل لكي يدعونا لأن نسمو ونعلو فوقها. وهذا ما يفسر بعض الأقوال الصعبة والتي تبدو قاسية في كلمات الرب يسوع نفسه «أنتم جميعاً أخوة ولا تدعو لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد وهو في السماء» (متى ٢٣: ٨، ٩) (راجع أيضاً متى ٤: ٢١ – ١٠: ٢٥ – ١٩: ٢٩). فالعلاقة الجديدة مع الله هي التي جعلت كلمة (البغضة) تظهر في كلمات الدعوة الجديدة، بقصد رفض العلاقات البيولوجية أي الخاضعة لقوانين اللحم والدم. وهذه الكلمات ليست محاولة لرفض الأب والأم بل هي الانتساب الجديد لعلاقات جديدة تفوق العلاقات التي

coptic-books.blogspot.com

تقوم على اللحم والدم فقط. وهي كلمات تؤكد أن المسيحي من خلال المعمودية يقف في مواجهة مع العالم كشخص تحرر من العلاقات التي تأسست على اللحم والدم فقط أي الهوية البيولوجية.

وهذا يعني أنه قادر على أن يحب ليس لأن القوانين البيولوجية تحتم عليه أن يحب كما نرى في العلاقات البيولوجية بل هو يحب بشكل غير مقيد بالقوانين وبالعلاقات البيولوجية نفسها.

والإنسان الكنسي يبرهن على أن ما هو صحيح بالنسبة لله هو أيضاً صحيح بالنسبة للإنسان. فالطبيعة لا تحتم شيئاً ولا تقهر الشخص بل الشخص هو الذي يجعل الطبيعة قادرة على البقاء وهو ما يجعل الحرية تطابق الوجود نفسه.

ونتيجة هذه الحرية أي تحرر الشخص من الطبيعةوتحرر الكائن من القوانين البيولوجية، تظهر في العلاقات البشرية داخل الكنيسة نفسها حيث لا توجد علاقات خاصة حميمة بين الأعضاء لا تسمح للآخرين في الكنيسة بالاشتراك فيها. وبالمقارنة مع الحب البيولوجي يمكننا أن ندرك جمال وحقيقة الإختبار الكنسي. فالإنسان عندما يحب بشكل بيولوجي يجعل هذا الحب مقيداً في دائرة خاصة ضيقة لا تسمح لأي إنسان آخر بالشركة فكل آخر خارج هذه العلاقة هو «غريب». وكل رجل آخر مهما كان هو غريب بالنسبة للزوجة والزوج.

coptic-books.blogspot.com

والمجتمع يفهم ويقدس هذا بل ويطلبه وذلك أقصي ما يمكن أن يصل إليه الحب على أساس القانون البيولوجي، أي أن يحب الإنسان إنساناً آخر ليس من أسرته[١٠]، وأن يحبه بشكل صحيح يعلو على تلك العلاقات البيولوجية، فهذا هو السمو فوق دائرة خصوصية العلاقات البيولوجية. ولذلك صار من صفات الكائن الكنسي أن يحب فوق كل دوائر الخصوصات ليس لأنه خاضع ومستعبد لدعوة أخلاقية مثل تلك التي تتردد في اجتماعات المسيحيين (تحب قريبك كنفسك)، بل لأن المحبة صارت هي الكيان الجديد للشخص الكنسي الذي ولد من رحم الكنيسة في الميلاد الجديد أي المعمودية، مما جعله عضواً في أسرة الله التي تعلو على كل القوانين البيولوجية وغيرها[١١]. وبهذا وحده تبرهن الكنيسة على ما يلي:

١- إن الخلاص ليس تقدماً أخلاقياً وتحسناً في طبيعة الإنسان وإنما هو تأقنم الطبيعة وتحولها إلى شخص جديد وخليقة جديدة.

---

(١٠) يقول القديس غريغوريوس النزينزي «كل رجل هو أخ وكل إمرأة هي أخت. البتولية هي نور القيامة فاللحم والدم قد تجليا بنور الحياة الغالبة الموت. وحتى الذين تزوجوا صار الزواج بالنسبة لهم هو شركة في أسرة الكنيسة» (رسالة ٩٢).

(١١) يقول القديس غريغوريوس النزينزي «لقد إنحلت القوانين الطبيعية لكي يمتلئ العالم العلوي، المسيح يدعونا فلا يجب أن نتردد» 38:2 or مجلد ٣٦: ٣١٣. وانحلال القوانين الطبيعية بدأ بالميلاد من العذراء بالروح القدس وكمل بالقيامة ولولا إنحلال القانون الطبيعي ما كان للعالم العلوي أن يمتلئ. وهنا نرى المأساة في أن الميلاد من العذراء قد نعترف به شفوياً وننكره عملياً بالبقاء تحت سيطرة العلاقات الخاصة أو التكتلات داخل الكنيسة.

coptic-books.blogspot.com

٢- ولكن هذا الشخص الجديد ليس فكرة أو مبدأ بل حقيقة تاريخية نراها في الواقع.

السلوك حسب «جامعية الكنيسة»

الكنيسة جامعة أو كاثوليكية حسب المعنى القديم السائد عند الآباء، وهو أن الكل أي كل المؤمنين هم معاً في وحدة خاصة وأن حياتهم معاً هي عماد كاثوليكية (جامعية) الكنيسة. وإذا كانت الكنيسة (كاثوليكية) جامعة فكل شخص في الكنيسة هو شخص كاثوليكي أو جامعي، فالصفة التي تلصق بالكنيسة تلصق بكل شخص فيها. وهذا يعني أنه في الكنيسة وحدها يملك كل شخص أن يعبر عن هذه الجامعية فهذا وحده هو الذي يجعل الشخص يحيا ككائن جديد دون أن يقع في خطر الفردية. ففي الكنيسة يتحقق أمران كل منهما يستوجب وجود الآخر بشكل طبيعي.

أولاً: الكون ليس حقيقة مغلقة يسير حسب القوانين[١٢] الطبيعية وكل جزء فيه إنما هو خاضع لقوانين خاصة به وعلى الإنسان أن ينضم بدوره إلى هذا الخضوع في دائرته الإنسانية وإنما الكون وحدة واحدة تحيا حياة جماعية جامعة لا يفصل

(١٢) خضوع الإنسان لقوانين الكون التي يخضع لها الله نفسه هو الاتجاه اليوناني القديم الذي أفسد على كثيرين تصور العلاقة الشخصية بين الله والخليقة. ولذلك نرى أن الكنيسة وهي متجهة نحو الكون لا تتجه إليه كجزء منه خاضع له بل تحيا فيه وتقدمه إلى الله وتأخذ منه ما يؤهل للحياة الجديدة.

coptic-books.blogspot.com

بينها أي فاصل، فالكون وحدة مدعوة من الله لأن تخضع للإنسان وتؤهله للنمو والسعي نحو تحقيق غاية خلقته. وهذا ما يتم التعبير عنه في الطقوس والليتورجية حيث نُدْخِل عناصر من الكون في خلاص الإنسان وميلاده الجديد مثل الماء في المعمودية وبذلك تعبِّر الكنيسة ليس عن البعد الكوني للخلاص بل عن اشتراك الخليقة في تجديد الإنسان لأن الإنسان خُلِقَ تاجاً للخليقة، وبالتالي تقدم الخليقة للإنسان ما يؤهله للحياة الجديدة في المسيح. فالصفة الكنسية أي «جامعية الكنيسة» هي دعوة للخليقة والكون للتجديد.

ثانياً: ولأن الإنسان على علاقة بالكون بسبب وجوده أو كيانه الكنسي الجامعي Catholic Mode صارت الحياة الإنسانية هي دعوة حقيقية لحقيقة الحضور الكاثوليكي أو الجامعي في الكون أي أن تدخل كل الكائنات في علاقة شركة وتوافق من أجل تحقيق غاية الخلق.

المسيح والكنيسة والهوية الواحدة:

لكي يتحقق الخلاص ويولد الكائن أو الإنسان الكنسي الجديد علينا أن نسأل ما هي علاقة المسيح بالكنيسة؟ والجواب هي علاقة الوحدة التي جعلت الآباء يقولون عن كل من نال سر المعمودية أنه «مسيح»، وهنا نرى الحقيقة الوجودية فكل شخص هو «مسيح» ليس بمعنى أخلاقي أو بشكل رمزي وإنما هو «مسيح» بالمعنى القديم عند الآباء أي

coptic-books.blogspot.com

أنه « ابن لله». ويصبح كل شخص أيضاً «كنيسة». وهنا لا نجد مشكلة بالمرة إذا تذكرنا أن الكيان الإنساني الجديد مولود من فوق وأن الهوية على أساس بيولوجي أي اختلاف وجود وكيان كل إنسان عن الآخر هي حقيقة بيولوجية، ولكن الحقيقة الكنسية هي أن ميلاد كل من يحمل هذه الهوية البيولوجية القديمة قد تغير وصار في المسيح ابن الله بالنعمة، فهو يحمل الهوية الجديدة التي يحملها كل مسيحي وهي هوية كاثوليكية. أي جامعة وهي لا تقود الكائن الجديد إلى العزلة والموت النابع من الفردية، بل تقود الكائن الجديد لكي يتأقنم في المسيح ويصبح إيمانه هو أن يحيا متجهاً نحو غاية التجديد أي أن يكون شخصاً ينمو رجاؤه في هذه الحياة عندما يجد أن الأشخاص الذين يشتركون معه في هذا الإيمان إنما هم بدورهم مشاركون له في هذا المصير.

وإذا أردنا أن نعبر عن هذه الهوية بشكل آخر فإننا نجد أن حياة عدم الموت وهي حياة المسيح نفسه هي التي وُهبت من الله لكي تجعل كل شخص غير خاضع للموت وغير مستعبد لحتمية الوجود البيولوجي، أي أن يكون كل شخص هو «مسيح» الوجود الإنساني.

coptic-books.blogspot.com

الميلاد الجديد والكيان البيولوجي القديم للإنسان

يقودنا البحث الآن إلى الإجابة على سؤال هام وهو: ماذا يحدث للكيان الإنساني القديم عندما يتكون الكيان الإنساني الكنسي؟ يدلنا الاختبار ولاهوت الآباء على أنه رغم المعمودية والميلاد من فوق والخلق الجديد فإن الإنسان يحيا ويموت كيانه البيولوجي.

فما هو الفرق الدقيق بين الحياة الجديدة كشخص والحياة القديمة الخاضعة للقوانين البيولوجية؟ وهذه النقطة بالذات تدعونا إلى اكتشاف تراثنا الكنسي للتعرف على العلاقة بين الكيان القديم والكيان الجديد. وهذا في حد ذاته يفرض علينا أن نكثف دراستنا للانطولوجيا أو الوجود كما فهمه الآباء. وبادئ ذي بدء إن الحديث عن القديم والجديد في الإنسان يخلق نوعاً من التناقض الظاهر في الوجود الإنساني نفسه. ولكن هذا التناقض ليس تناقضاً في كيان الإنسان الواحد وإنما هو تناقض تفرضه اللغة والكلمات. أما الحقيقة الواضحة فهو أن الإنسان الكنسي أو الكيان الكنسي هو كيان تفرضه الإرادة الإنسانية الساعية دائماً لأن يكون الإنسان كما يريد وليس كما يُوجد وهنا تبرز أهمية البعد الخاص بالحياة الآتية أو البعد الاسخاتولوجي، وذلك أن الهوية الكنسية هي هوية آتية أي هوية تتحقق في الحياة الآتية ولا تدرك بشكل كامل في الزمان الحاضر.

coptic-books.blogspot.com

ويجب أن نحذر القارئ من الحديث عن الدهر الآتي أو الحياة الآتية فقد ساد الفكر المسيحي المعاصر نزعة تفاؤل مصدرها الأساسي فلسفة أرسطو التي ترى أن المستقبل ذاته يحمل إمكانيات تطور الإنسان وأن الزمان كفيل بتحقيق غاية الحياة الإنسانية لأنها سوف تتطور وتتحسن فكل إمكانيات الإنسان قادرة على أن تحقق له التقدم دائماً وعلى أن يصير أفضل مما هو عليه الآن. بل لقد عادت فكرة أرسطو تطل برأسها مرة أخرى من خلال كتابات تيار دي شاردان Teilhard Dechardin التي تدعو إلى تطور الإنسان وإلى أن الطبيعة الإنسانية تتطور صاعدة نحو غاية التطور التي وضعها الله في الخليقة. هذا في الواقع تعليم مختلف تماماً عن تعليم الآباء ولا علاقة له بالمرة بما نقوله هنا. فقد حاولت جاهداً خلال هذه الدراسة أن أتجنب الأساس الفلسفي الذي قامت عليه مشكلة الطبيعة الإنسانية وبالتالي مشكلة الطبيعة الإلهية.

وإن ما أرفضه تماماً لأنه ليس في تعليم الآباء هو:

١- الرفض لكل إمكانية القول بأن الشخص هو تعبير أو منبثق من الطبيعة أو الجوهر. هذا الرفض خاص بالله قبل أن يكون خاصاً بالإنسان.

٢- لقد رفضت بشكل واضح أن يكون تطور الطبيعة الإنسانية هو تطور الشخص وانبثاق التطور من الطبيعة هو فكر الماركسية الذي يختلف تماماً عن فكر الآباء.

coptic-books.blogspot.com

فالحركة هي حركة أشخاص وليست حركة طبيعة، وبالتالي فإن الذي يتطور هو الشخص دون أن يكون للبيئة أي تأثير على هذا التطور لأن تأثير البيئة والظروف المحيطة بالإنسان على تطور الإنسان هو فكر لا يقبله آباء الكنيسة.

إذاً يعلّم الآباء تعليماً آخر لا يمت لأي نظرية خاصة بتطور الإنسان البيولوجي أو الاجتماعي أو السياسي أو التاريخي، وهذا التعليم لا يجب أن يختلط بما سلمه الآباء لنا. لذلك علينا أن نبحث عن لفظ جديد يشرح لاهوت الآباء في دقة ونعبر عن الإيمان والرجاء المسيحي بشكل دقيق. هذا ما يجعلني اقدم للقارئ هذا اللفظ الجديد «الكيان الافخارستي» و«إنسان الافخارستيا». والحجة الأساسية التي أستند عليها هي أن الإنسان الكنسي مغروس في الحاضر وهذا هو كيانه الإنساني البيولوجي، ومغروس في المستقبل أي الهوية أو الشخص الكنسي، وصار بذلك مثل الشجرة مع ملاحظة أن جذر الشجرة هو في المستقبل وفروعها في الحاضر وهو ما تعبر عنه رسالة العبرانيين عندما تشرح لنا الكلمة الدقيقة كائن أو أقنوم أو الشخص أو Hypostasis في (عب ١١: ١) ذلك أن جذر أو أساس الكائن الكنسي هو المستقبل وذلك المستقبل نفسه هو الذي يدعوني إلى أن أُقدم الافخارستيا كما فهمها الآباء وكما تمارس في الليتورجية.

coptic-books.blogspot.com

الفصل الرابع

الإنسان الإفخارستي
أو
الشخص الآتي

تقودنا دراستنا السابقة إلى هذه الزاوية الدقيقة جداً والتي جعلتنا نخوض غمار مشاكل فلسفية وتاريخية قديمة وحديثة وهي ذات المشاكل القائمة الآن التي جعلتني أميز بين الكيان الكنسي والكيان البيولوجي. وهنا يجب أن أقول أن الفرق الدقيق لا يمكن فهمه إلا في ضوء الافخارستيا نفسها. فالإنسان في الافخارستيا يمارس التسامي والارتفاع فوق ضرورات الوجود البيولوجي ودائرته المغلقة. لكن يجب العودة إلى الآباء والابتعاد عن لاهوت العصر الوسيط الذي يظهر في كتابات أرثوذكسية بسبب تأثير الكتابات الغربية.

coptic-books.blogspot.com

وحسب التعليم القديم المعروف لنا عند الآباء تسمى الافخارستيا بالاسم الكنسي القديم Synaxis سيناكيس وتترجم عادة بالاجتماع أو اللقاء ولكنه ليس مجرد اجتماع بل اجتماع الجماعة. وهنا نرى أنه حتى كلمة كنيسة أو «اكليسيا» هي بدورها نابعة من إختبار اجتماع الجماعة المسيحية في الافخارستيا[1]. فقد دعى المسيحيون القدماء هكذا بسبب حقيقة الانتماء الكنسي من خلال العلاقات الكنيسية التي تتكون في الافخارستيا نفسها عندما تصبح الجماعة مثل شبكة متماسكة تجعل لكل إنسان كياناً يختلف عن الكيان البيولوجي المغروس في العلاقات الأسرية والاجتماعية الضيقة التي يفرضها الوجود البيولوجي نفسه. أما في الافخارستيا فإن الإنسان أمام تاريخ جديد. تتحول فيه العلاقات البيولوجية وبنفس الكلمات إلى علاقات أسمي وأشمل من العلاقات البيولوجية أي علاقة الأب والأخ والأخت والأم... الخ. فهذه الكلمات الآتية من الوجود البيولوجي هي بذاتها التي تستعمل في الافخارستيا للتعبير عن الحقيقة الجديدة وهي المحبة الشاملة الحرة غير المستعبدة للوجود البيولوجي. وهنا يجب أن نلاحظ أن كل التفاسير القديمة والآتية من القرون الثلاثة الأولى وبعد ذلك احتفظت بالمعني الافخارستي للصلاة الربانية[2] حيث كانت الجماعة

(١) راجع دراسة المؤلف بعنوان وحدة الكنيسة في الافخارستيا المقدسة في القرون الثلاثة الأولى باليونانية ١٩٦٥ – ص ٢٩ – ٥٩.

(٢) راجع تفسير الصلاة الربانية للعلامة ترتليان – أورجينوس كيريانوس وغيرهم.

coptic-books.blogspot.com

على نحو ما يُمارْس بكل وضوح، يخاطبون الآب السماوي «أبانا الذي في السموات»، معبرين بذلك أثناء الافخارستيا عن الانتماء الكياني لهذا الآب الواحد. وحتى عندما استخدمت كلمة «الأب» للأسقف في رسائل اغناطيوس الأنطاكي وغيره فقد كانت دلالة هذا التعبير ظاهرة في الافخارستيا لأن الأسقف يعطي الطعام الروحي أي الافخارستيا لأولاده مثل الله. وهنا أيضاً نجد أن الجماعة كانت تجتمع مع الأسقف حول مذبح واحد في كل كنيسة وهي الحقيقة التي جعلت الكنيسة الشرقية تمنع الاحتفال بالافخارستيا على نفس المذبح مرتين متعاقبتين في نفس اليوم لأن إقامة قداسين يعني في الواقع وجود كنيستين أو جماعتين ولكن كما نرى في التسليم القديم أن تغير العادات مصدره نمو الكنيسة وانتشارها مما جعل القس ينوب عن الأسقف في إقامة القداس حتى في زمن القديس أغناطيوس الشهيد (حوالي ١١٠ سنة م) ومع ذلك تبقى الحقيقة التاريخية المعروفة لنا وهي أن الاجتماع الواحد حول مذبح واحد هو الممارسة القديمة التي تعبر عن الوحدة. ولاهوت الآباء يرى في الافخارستيا ليس التعبير عن جزء من الكيان الجديد وإنما التعبير عن الشخص كله وعن حقيقة كيانه الكامل غير المتجزئ.

المسيح الواحد الذي لا ينقسم:

الافخارستيا هي شركة في جسد ودم الرب حيث يوزع الجسد والدم على المتناولين دون أن ينقسم المسيح إلى أجزاء

coptic-books.blogspot.com

أثناء التوزيع وإنما الذي يحدث هو أن كل متناول يحصل على المسيح كله وعلى الكنيسة كلها. وهنا لا يجب أن تدخل التفاصيل البيولوجية في فهم هذه الحقيقة التي هي في حد ذاتها دعوة للتسامي والارتفاع فوق قوانين البيولوجيا. وما نراه في التاريخ الكنسي هو أن الافخارستيا كاجتماع صارت المناسبة التي تمارس فيها الجماعة كل ما يخص حياتها مثل المعمودية والرسامات والزواج والجنازات... الخ وهذا يدعونا إلى التوقف أمام هذه الظاهرة الفريدة التي يضعها الطقس الكنسي أمامنا مؤكداً لنا أن الهوية الكنسية هي أصلاً نابعة من اجتماعات الافخارستيا وأن تحقيق هذه الهوية لا يمكن أن يتم إلا في الافخارستيا. فكل المناسبات السابقة مثل المعمودية والرسامات والجنازات... الخ ليست إلا مناسبات يمارس فيها كل مسيحي الارتفاع فوق الوجود البيولوجي وتحول هذا الوجود إلى شخص حقيقي. وعندما انفصلت الأسرار الكنسية مثل المعمودية عن الافخارستيا ساد الفهم الساذج بأنها بركة فقط وصارت الطقوس والأسرار تمارس على أنها بركة للوجود البيولوجي للإنسان. أما إذا ظلت الافخارستيا هي محور الأسرار الكنسية كلها فإن الأسرار الأخرى تتحول إلى المناسبات التي نمارس فيها الهوية الكنسية ونرتفع فيها فوق الوجود والكيان البيولوجي نفسه.

وعلى سبيل المثال يصبح الزواج بركة فقط إذا انفصل عن الافخارستيا أما إذا ظل يمارس في الافخارستيا فإن الزواج

coptic-books.blogspot.com

يصبح ليس دعوة لتكوين أسرة بالمعنى الاجتماعي الضيق بل دعوة إلى الانضمام كمتزوجين لشعب الله وإلى الأسرة الأكبر أي الكنيسة. وهذا لا يمكن فهمه إلا عندما تقدم الافخارستيا للمتزوجين كدعوة للاتحاد بكل الكنيسة في كل العصور. لذلك السبب يتم وضع الأكاليل كتعبير عن الإنتصار على الوجود البيولوجي[٣]. فالزيجة عندما تمارس في الافخارستيا تصبح أكثر من بركة اتحاد الرجل والمرأة لأن الاتحاد على أساس الحياة البيولوجية ليس هو الأساس الذي يصنع الوحدة الحقيقية وإنما الاتحاد في الافخارستيا، أي اتحاد البذل والعطاء والذي يقدم فيه المسيح جسده هو الذي يجعل الكيان الكنسي هو الأساس الذي يتم عليه بناء الاتحاد، وبذلك يصبح الاتحاد في الزيجة كياناً كنسياً لا يمكن فصله عن الحياة الآتية.

الافخارستيا عند الآباء هي حياة الدهر الآتي أو الحياة الآتية التي نتذوقها هنا في الزمان الحاضر[٤]. هذا البعد الأخروي أو الآتي هو الذي يساعدنا على فهم الافخارستيا بشكل سليم بل ويقودنا إلى الإجابة على هذا السؤال: ما هي

---

(٣) الأكاليل كانت توضع أصلاً على رؤوس الذين نالوا المعمودية كتعبير عن الانضمام لرتبة الشهداء والذين صاروا مع المسيح ذبيحة واحدة. وعندما توضع على رؤوس المتزوجين فهي تعبر عن عطية التبني التي وهبت في المعمودية والتي تتحقق الآن في الزواج وفي الافخارستيا عندما تصبح المحبة الزوجية هي بناء لشعب الله أي الكنيسة وذلك بالمحبة الباذلة. (راجع بحث الأستاذ Trembelas الذي نشر في عام ١٩٥٨ عن علاقة الافخارستيا بالزيجة باليونانية).

(٤) هذا يؤكد صحة الترجمة القبطية للصلاة الربانية «خبزنا الذي للغد» (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

العلاقة بين الكيان الكنسي والكيان البيولوجي في الافخارستيا نفسها ؟ تاريخياً كانت الجماعة تجتمع في مكان واحد للتناول من الافخارستيا وكان الاجتماع الواحد في مكان واحد وأمام مذبح واحد وأسقف واحد هو تذوق وتحقيق وحدة الكنيسة وإعلانها في الزمان وفي المكان أي في التاريخ. لكن لا يجب أن نتوقف عند هذه النقطة فقط فهذه الوحدة هي أيضاً وحدة آتية في المستقبل أي تكمل في الدهر الآتي الذي دخل الزمان الحاضر وتاريخ الإنسان وجعل وجود كيان الإنسان هو الوجود الآتي أي الوجود الذي يكتمل في الدهر الآتي. هنا تصبح الافخارستيا هي التقدم نحو اكتمال هذا الوجود أي أنها حركة نحو تحقيق كيان الإنسان الكنسي الذي ولد في المعمودية(٥). وهنا نرى الدعامتين اللتين تشرحان لنا الافخارستيا.

الدعامة الأولى وهي أن الافخارستيا اجتماع.

الدعامة الثانية هي أن الافخارستيا حركة.

وعندما فقدنا هاتين الدعامتين فقدنا التعليم المملوء بالحيوية والفاعلية، هاتان الدعامتان اللتان كانتا تميزان تعليم الآباء عن الافخارستيا ووقعنا أسرى سكون وعدم حركة لاهوت العصر الوسيط الذي يظهر في بعض الكتب الأرثوذكسية.

---

(٥) المعمودية ولادة والافخارستيا نمو وكمال. وهذا هو المعنى الظاهر خلف كلمات ولادة وطعام في نصوص العهد الجديد وكتابات آباء الكنيسة.

coptic-books.blogspot.com

فالافخارستيا عند الآباء هي حركة حياة نحو حياة آتية وهي تقدم كيان الإنسان إلى حياة القيامة والدهر الآتي. وما يجب أن نحذر منه هو أن نفهم الافخارستيا على أنها مجرد احتفال أو مجرد ليتورجية فالذي يجعل الليتورجية ليتورجية حقيقة هو الاجتماع والحركة أي السير، سير الجماعة نحو حياة الدهر الآتي. وهذا بالذات هو الذي يجعل الكيان البيولوجي ينتقل من الحياة الحاضرة إلى حياة الدهر الآتي أي يجعله الكيان الكنسي الذي ينتمي إلى القيامة من الأموات فيصبح أعلا من التاريخ لأنه مغروس في حياة عدم الموت وليس محصوراً في التاريخ الذي يسجل الولادة والموت ويعجز عن تسجيل الحياة الآتية لأن التاريخ مشغول دائماً بالماضي.

هنا في الافخارستيا نرى كيف يظهر الكيان الكنسي كشخص جذره في المستقبل أي الحياة الآتية التي تلهم حياته الحاضرة وتغذي وتحفظ شخصيته من الموت. فقد داس الرب الموت وجعل قيامته عربون قيامتنا، وذلك العربون هو ما نتذوقه هنا في الزمان الحاضر لكي ننمو نحوه حتى تكتمل الشخصية بالقيامة وحياة الدهر الآتي[٦]. وهذا يجعل حقيقة الكيان الإنساني الكنسي في الزمان الحاضر صورة لما سيكون عليه في الدهر الآتي. فالافخارستيا هي التي تجعل حضور الثالوث

(٦) الإيقونات هي أفضل تعبير عن هذه الحقيقة حيث نرى الروح أو النفس وهي مقمطه في لفائف الولادة ويحملها المسيح له المجد لأنها تولد إلى حياة جديدة وتدخل الدهر الآتي كطفل (راجع أيقونة نياحة السيدة العذراء – دير السريان – كنيسة السريان ق ٥) (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

والملائكة والقديسين وكل الذين آمنوا بالمسيح حاضرين معنا حسبما نرى في صلوات الكنيسة. وكيف يحدث هذا وما هو معناه؟ والجواب هو أن المسيح جمع كل هؤلاء في وحدة واحدة أي الكنيسة وأنه بذلك كشف لنا عن الجذر المغروس في المستقبل أي الله والملائكة والقديسين، والفروع التي تمتد في الزمان الحاضر وهي نحن جماعة المؤمنين في هذا الزمان، وهذه هي صورة ومثال المستقبل أي الدهر الآتي. وعند الآباء نرى أن «**الظل**» هو ما كان يتحدث عنه العهد القديم أما الصورة أو المثال فهو ما يدل على ما هو آت أي حياة القيامة أو الدهر الآتي. ويكفي أن نتذكر أن الصورة التي تدل على ما هو آت هي صورة الله في الإنسان التي هي مثال الحياة الآتية. لذلك استعمل الآباء كلمة مثال ليس للدلالة على أحداث ماضية وإنما لأن المثال يدلنا على ما هو آت والذي تحقق بكامله في المسيح ويعلن سرياً في هذا الزمان حتى ينقضي التاريخ ويكون الله الكل في الكل. فما هو آت هو كيان الإنسان الذي يُكشف في الافخارستيا، ذلك الكيان الجديد الذي هو فوق كل حدود الحياة البيولوجية، وهذا الكيان هو **الضمان** أو في اليونانية Hypostasis لما هو آت حسب نص رسالة العبرانيين «الإيمان هو الثقة بما يرجى وضمان غير المنظور» (١١: ١)[٧].

---

(٧) رجاء مراجعة شرح هذا النص الهام (عب ١١: ١) في عظات ذهبي الفم على الرسالة إلى العبرانيين فهو يؤكد أن الإيمان ليس قضايا فكرية وكلمات وإنما حياة آتية وكيان ينمو نحو القيامة. وتنفرد الكنيسة القبطية بترتيل نهاية قانون الإيمان «وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي» حيث تؤكد الجماعة أنها ستحيا حياة الدهر الآتي. (المعرب)

coptic-books.blogspot.com

تداخل حياة الدهر الآتي والزمان الحاضر:

كيف يمكن للإنسان الذي يحيا وجذر كيانه في المستقبل وحياته تمتد إلى ما يحدث في الزمان الحاضر أن لا يقع في مأساة انقسام الحياة وتراجيديا الشخص الذي كان يصارع تحت سيطرة الفكر الوثني القديم ساعياً لكي يتحرر من حتمية الطبيعة وضرورة الوجود؟ الجواب ليس بسيطاً وإنما يتضح في العلاقة الجدلية أو الديالكتيكية بين ما هو كائن وما هو آت، مع ملاحظة أن ما هو كائن هو حقيقي وما هو آت هو حقيقي أيضاً. ولكن نفهم هذه العلاقة علينا أن نلقي نظرة على سفر الرؤيا حيث نرى المسيح حاضر في الأحداث ويحركها ولكن السفر ينتهي بصراخ القديسين «تعال أيها الرب يسوع» ولا يتوقف السفر عند هذه العبارة بل تختم باليقين «نعم أنا آت سريعاً» (أنظر رؤ ٢٢: ٨ – ١٧). فالذي سيأتي هو حاضر ولكن حضوره هو بمثابة عربون لما سيأتي ولأن الحاضر هو الآتي يصبح الحضور أشبه بمقدمة لما سيأتي. والافخارستيا تعلن ذلك بشكل واضح حيث المسيح حاضر وآت أيضاً، والعلاقة الجدلية تظهر في الصلوات التي تدعونا إلى انتظار مجئ الرب وإلى اعتبار أننا غرباء ونزلاء في هذه الدنيا[٨].

(٨) تقول صلواتنا «ونحن أيضاً الغرباء في هذا المكان أي الدنيا إحفظنا في إيمانك... واهدنا إلى ملكوتك» (المعرب).

coptic-books.blogspot.com

الحياة الآتية كأساس للحياة النسكية الصحيحة

لأننا غرباء ونسير نحو الحياة الآتية يرفض التراث المسيحي الشرقي جمع المال والثروة والممتلكات كأداة للتعبير عن الكيان والشخصية، لأن الكيان آتٍ والشخص يتطلع إلى كمال حياته في الدهر الآتي. وعلى هذا الأساس الصحيح يجب أن نفهم أن الطمع واقتناء الأموال هو مصدر الشر (أنظر ١تيمو ٦: ١٠) بل إن الثروة قد تمنع أو تنفي الإنسان من ملكوت الله (أنظر لو ٦: ٢٤) وهنا يجب أن لا نقع في الخطأ الذائع بأن الأموال تفسد الأخلاق فالفساد الأخلاقي نابع من الحياة الإنسانية نفسها وليس من الأموال ومن الحقيقة المخيفة وهي أن الإنسان الذي يحيا في دائرة الوجود البيولوجي يرى أن ضمان وجوده هو في المال وأن جوهر الحياة هو فيما يملك وهذا عودة إلى الفكر الوثني القديم الذي كان يرى أن جوهر الأشياء هو أساس الحياة وليس الشخص. فهل كانت مصادفة لغوية عندما استخدم إنجيل لوقا كلمة جوهر Ousia (اليونانية) للميراث الذي طلبه الابن الضال (أنظر لوقا ١٥: ١٢). أليست الممتلكات هي ضمان وجوهر كل شيء عند الذين لم يدركوا أن الحياة ليست حياة بيولوجية فقط بل حياة آتية.

فالنسك الصحيح هو أن ينال الكيان والشخص حياته من الله أي من كيان الله نفسه وهو ما يجعل الاعتماد على الممتلكات كضمان وكجوهر للحياة مرفوض تماماً. بالطبع نحن

coptic-books.blogspot.com

نحيا في العالم ونستعمل كل ما فيه عن اقتناع بفائدته، والنسك لا يقضي على استعمال وتطور كل ما تأتي به الحضارة ولكنه يحذر الإنسان من أن يجعل ذلك أي المال والمقتنيات... الخ هو كيان شخصيته. هنا نرى كيف يحرر النسك ما يسمى بالطبيعة لأنه لا يجعل الإنسان مستعبداً لما يوصف بأنه ضروري بل حراً من قيود الطبيعة، وعندما تتأقنم الطبيعة في إطار الخبرة الافخارستية ومن خلال الشركة في حياة الجماعة يظهر هنا النسك في المسيحية كدعوة للتجاوز والارتفاع فوق الحياة الطبيعية. ومن هنا نرى أن التعليم بالخلاص من خلال الممارسات النسكية الذي تقدمه الديانات الأخرى مختلف عن تعليم المسيحية في نقطة هامة وهي أن النسك المسيحي يؤدي إلى تأقنم الطبيعة الإنسانية من خلال خبرة الإنسان المسيحي في الافخارستيا. أما النسك غير المسيحي فهو يفتقر إلى الافخارستيا التي ستظل أهم ما يميز تعليم المسيحية عن الخلاص. والشخص ينمو نحو التشبه بالله من خلال خبرة الافخارستيا لا من خلال النسك وحده، والافخارستيا هي التي تعطي للشخص الاشتراك في الحياة الآتية وليس النسك الذي لا يزيد عن كونه الاستعداد الشخصي للتذوق أما التذوق نفسه فسوف يبقى في سر المسيح. والطابع النسكي للكيان الكنسي لا يقوم على رفض العالم أو الطبيعة البيولوجية للإنسان، لأن هذا الرفض يضع العالم والحياة البيولوجية خارج اختبار الخلاص. وإنما يقبل

coptic-books.blogspot.com

الإنسان الكنسي وجوده البيولوجي لكي يحوله إلى شخص، إلى وجود غير بيولوجي أي وجود كنسي أي وجود له كيان حقيقي أي كيان شخصي أي الحياة الأبدية.

المحبة والشهوة في النسك:

لقد أكدت من قبل أن الحب الشهواني Eros والجسد لا يجب أن يوضعا خارج عمل الله لئلا نفشل في اقتناء الخلاص، وإنما يجب أن تبقى الشهوة والجسد ليس كقوة في الطبيعة وإنما أن تتأقنم في حياتنا لتساهم إيجابياً في الوجود الكنسي، أي الوجود القائم على الشركة الذي لا ينكر الشهوة وإنما يحولها إلى قوة شخصية تساهم في خلق الكيان الجديد. وتحول الشهوة لا يتم بدون الافخارستيا ذلك أن الافخارستيا هو عطاء الذات المطلق دون قيود أو شروط من جانب المسيح. فهو يحب إلى درجة أنه يهب ذاته أي جسده ودمه دون أن يطلب منا أن نقوم بالمثل. هذه الخبرة تقودنا إلى تأمل العطاء على أساس أن ما يُوهب سوف يكمل في الدهر الآتي. وهكذا تتحول الشهوة إلى رغبة في العطاء دون قيود أو شروط وإلى تجاوز حدود الوجود البيولوجي للإنسان. فالشهوة هي تعبير دقيق عن النشوة Ecstasy والنشوة تتأقنم في الافخارستيا، لأن قبول المسيح يحول هذه النشوة فينا إلى رغبة في تجاوز الذات والارتفاع فوق كل الحدود. وهكذا بعطية من الله وفي الافخارستيا نصبح على مثال الثالوث الذي يحب ويعطي دون أن يتقيد بقيود الطبيعة لأنه يحب ويعطي

coptic-books.blogspot.com

كشخص أي لا يستهلك بل يتحد ولا يأخذ كمن هو محتاج بل يأخذ الذي له لأجل الشركة.

فكيف يتحول الحب الشهواني فينا إلى عطاء؟ بالارتفاع فوق الوجود البيولوجي إلى ذلك المستوى الواعي للحياة الآتية والذي نتذوقه في الافخارستيا. وعندما يصل الحب الشهواني إلى هذا المستوى فإننا نلاحظ على الفور أن الحب الشهواني يتحول إلى طاقة عطاء وإلى حركة حرية لأن العطاء يحرر الإنسان من قيود الطبيعة وقيود الوجود البيولوجي. وتصبح المحبة كونية Universal، أي أنها إذا استقرت في شخص واحد صارت تحب كل الأشخاص، لأن الشخص الذي يحب هو شخص قد أقنم الطبيعة الإنسانية كلها وصار حب شخص واحد هو حب الإنسانية كلها، لأنه من خلال العلاقة مع شخص واحد نرى كل الأشخاص وكل الأشياء التي تأقنمت فيهم. ومثالنا في ذلك هو الله نفسه، فالله الآب يحب كل الأشياء وكل الأشخاص في ابنه الوحيد الذي يؤقنم في ذاته كل ما يخص الإنسانية ويجعل ما يخص الإنسانية كائن في أقنومه وهو ما يجعل محبة الآب له هي محبة لكل الإنسانية المتأقنمة فيه (أنظر كولوسي ١: ١٦).

تحرر الجسد:

عندما يتجلى الحب الشهواني بقوة حياة الدهر الآتي التي نتذوقها في الافخارستيا فإن الجسد يتحرر من سلطان

coptic-books.blogspot.com

الطبيعة لأنه يتأقنم ولا يبقى أداة صماء عمياء بلا معنى وبلا قيمة. فالذي يفرض على الجسد ذلك التحجر وعدم الاستجابة هو أننا نعامله على أنه عنصر دخيل وغريب وليس تعبيراً حراً للشخصية. ولكن عندما نتذوق المحبة في قوتها الدافعة وتصبح الشهوة خادمة للعطاء ولشجاعة البذل، يتحرر الجسد من الأنانية والفردية، ويصبح تعبيراً تاماً عن الشركة لأنه هو كذلك في التعليم الرسولي نفسه حيث نرى عند الرسول بولس، أن الشركة هي في «جسد المسيح»، وأن شركة وحياة الكنيسة هي وحدة «جسد المسيح» أو «جسد المسيح الواحد». بل أن ما نناله إنما هو يُوهب في «جسد المسيح»، أي الافخارستيا التي هي مسيرتنا نحو الوحدة ونحو الحياة الآتية. وهكذا نرى أن الخبرة المعاشة تؤكد لنا أن الجسد ليس شيئاً سلبياً في حياة الإنسان ولا هو قوة تجذب الكيان والفكر نحو الإنغلاق وإنما العكس صحيح فهو أداة الشركة والمحبة. وعندما يتأقنم الجسد ويصبح أحد معالم الشخصية الإنسانية فإنه يرتفع فوق الفردية ويتحرر من الرغبة في العزلة أي السعي السلبي نحو الموت[٩] فقد صار الجسد هو جسد

(٩) الموت بمعنى العزلة هو الوجه السلبي للموت ولكن الموت بالمعنى البيولوجي هو الوجه الإيجابي للموت. ولأن التحرر من الكيان البيولوجي يتم في المعمودية وفي الافخارستيا وتتحول حياتنا البيولوجية إلى حياة متأقنمة صار من الواضح أن الخلاص لا يتم بتدمير الجسد وإنما بدخوله حياة الدهر الآتي. لأن كل محاولات القضاء على الجسد إنما تقود في النهاية إلى ما هو عكس ذلك أي بمزيد من الرغبات والشهوات الخفية.

coptic-books.blogspot.com

شركة وذلك في الكنيسة وفي الافخارستيا، لأن جسد الرب نفسه هو جسد شركة. فإذا كان الكيان الكنسي هو تحرر من سلطان الحياة البيولوجية التي رأينا أنها تقود إلى العزلة وإلى الفردية، صار من الواضح أن نهاية الحياة الجسدية ليست الموت بل القيامة. والتحرر من الموت ومن قانون الموت هو الوجه الآخر للعملة coin لأن التحرر من سلطان الحياة البيولوجية هو في حقيقة الأمر سعي نحو القيامة. فالافخارستيا هي دعوة لوجود الإنسان وإلى تحرر كيانه على النحو الذي وصفناه. وعندما يصبح الوجود الكنسي والكيان الكنسي هو كيان افخارستي مغروس في المستقبل وينمو في الزمان الحاضر فإن الإنسان يتذوق عربون الانتصار على الموت هنا في الحياة الحاضرة، ويجد في كيانه الكنسي علامات هذا الانتصار بل ويتذوق هذا الانتصار في الافخارستيا. هذا الانتصار ليس انتصار الطبيعة بل انتصار الشخص وليس انتصار الإنسان بكمال الطبيعة بل انتصار الشخص باتحاده الشخصي بالله لكي ينمو كشخص متحداً بالله. وهذا ما جعل الآباء عندما درسوا الخرستولوجي يقولون إن الإنسان تحرر وقام وانتصر على الموت في المسيح. ويجب أن نلاحظ أن الانتصار هو انتصار الإنسان كشخص وليس انتصار الطبيعة كفكرة ومحتوى فلسفي لا وجود له في تراثنا الكنسي.

coptic-books.blogspot.com

الافخارستيا ومأساة الإنسان المعاصر:

إذا كان انتصار المسيح على الموت هو انتصار شخصي فإن الإنسان الافخارستي هو إنسان يختلف تماماً عن الإنسان الذي يعاني من مأساة أو تراجيديا الصراع مع الطبيعة، لأنه لا يستسلم للطبيعة ولا يرفضها بل يستوعبها ويؤقنمها ويحولها إلى كيان شركة وكيان كنسي، وهو بالتالي يقف في مواجهة الإنسان المعاصر الذي يريد أن يهرب من المحتويات والنظريات والفكر الفلسفي العقيم لكي يواجه كيانه كشخص كائن وموجود. وإذا كانت هذه المواجهة قد أدت إلى ظهور الفلسفة الوجودية التي تلتقي مع لاهوت الآباء في بعض النقط، إلا أن ما تفتقده بعض مدارس الوجودية هو «الحياة الأبدية» لأن النسك المسيحي هو إلهام هذه الحياة الآتية من الله، إنما النسك السائد حتى في بعض مدارس الوجودية فهو إلهام الصراع الاجتماعي ومحاولة الوجودية أن ترتقي بالكيان البيولوجي للإنسان بدون الحياة الأبدية، وهذا في حد ذاته يعطل تأقنم الوجود الإنساني لأن الوجود الذي نستقيه من الحياة البيولوجية هو وجود يفرض على الإنسان الخضوع للقوانين البيولوجية ويعطل الحرية الإنسانية. أما الوجود المتأصل في الحياة الآتية فهو الوجود الذي تذوق القيامة في المسيح وصار متحركاً نحو وجود مستقبلي وأتٍ. وهكذا يجب أن يقف الإنسان الافخارستي في مواجهة مع الإنسان المعاصر الذي ثبَّت يقين وجوده على جسده، أما

coptic-books.blogspot.com

إنسان الكنيسة فهو قد أسس يقين وجوده على ما هو آتٍ ولذلك تأقنم وتحرر من أهواء وقوانين الوجود البيولوجي التي تؤدي في النهاية إلى الموت.

تحذير أخير

في نهاية هذه الدراسة يجب أن نقول إننا ندعو إلى تجاوز الحياة النفسية القائمة على الانفعالات العابرة والتي قد تصدر عن إيمان سليم ولكنها تفتقر إلى العمق وإلى الأصالة. فما هو هذا العمق؟ هو كيان الإنسان نفسه، وما هي الأصالة؟ هو تأقنم هذا الكيان في الله. وكمثال على ما نقول، تذكّرنا الليتورجية بالراقدين وبالأحياء أيضاً. هذه الذكرى تمارس في الافخارستيا وليست هي تذكّر الأحداث والكلمات وانجازات الأحباء ومشاكلهم، وإنما هي ذكرى نابعة من حقيقة وجودية وهي حقيقة وحدتنا مع هؤلاء الأشخاص في خبرة جديدة هي تحول كياننا البشري إلى كيان جديد. هذا التحول يعني أن المصير النهائي للإنسان هو مصير أشخاص وليس مصير طبيعة، وأن الكلمة النهائية هي للشخص وليس للطبيعة. وبالتالي فنحن الذين ربطتنا وحدة المصير مع هؤلاء لا نتذكرهم على أساس حياة نفسية إنفعالية وإنما لأننا معهم قد تحولنا إلى أشخاص على صورة الله خالق كل الأشياء، والذي خلق الإنسان لا لكي تكون له طبيعة فقط، وإنما لكي تتأقنم هذه الطبيعة وتصبح شخصاً، هذه ليست مسألة ننفعل بها

coptic-books.blogspot.com

هي مواجهة اللاهوت المسيحي للوثنية، ومواجهة
م بالخلق من العدم للتعليم اليوناني القديم. هذه
هة التي قادها الآباء كانت من أجل الشخص ومن أجل
سه ولا شيء أعظم من الشخص في تراثنا المسيحي.

.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

المطران يوحنا زيزيولاس

- ولد في اليونان سنة ١٩٣١ميلادية
- قدم رسالة دكتوراة في اللاهوت بأثينا عن :
"وحدة الكنيسة في الأفخارستيا في القرون الثلاثة الأولي " سنة ١٩٦٥
- درّس الآباء في جامعة تسالونيكي وجامعة جلاسجو (ولايزال)، كما درّس في عدد من الجامعات الأوروبية والأمريكية .
- يعتبره علماء اللاهوت المعاصرين في الغرب أكثر اللاهوتيين عمقاً وأصالة، خاصة في مجال كتابات الآباء .
- يعتبر واحداً من أبرز رجال الحوارالمسكوني عن الجانب الأرثوذكسي في العصر الحديث .
- سيم أسقفاً (تابعاً لكنيسةالقسطنطينية) في سنة ١٩٨٧.
- نشر كتابه هذا بالإنجليزية بمعهد القديس فلاديمير الأرثوذكسي بنيويورك.

يطلب هذا الكتاب من :

- المركز الأرثوذكسي للدراسات الأبائية ت : ٢٤١٤٠٢٣
e-mail:santonio@link.net www.abaacentre.org
- بيت التكريس ت :٤٨٣٦٣٨٩- ٦٧٤٥٢١٩
- ومن المكتبات والكنائس بالقاهرة والأقاليم السعر ٦ جنيهات